شعـراء قتلهـم شعرهم

الناشر : **مكتبة مدبولى الصغير**
٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز
تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ - ٣٤٤٢٢٥٠
ميدان سفنكس ت: ٣٤٦٣٥٣٥

رقم الإيداع : ١٣٠٦٠ / ٩٦
الترقيم الدولى : 977-236-014-7

الطبعة الأولى : ١٩٩٧م - ١٤١٧هـ

كمبيوتر : كايرو ميديا

سمير مصطفى فراج

إهـــداء

إلى قُرَّتَىْ عينى

" لـبـنـى " و " نـــزار "

هذا هو الشعر " فلا تقربا هذه الشجرة "

أبـوكـما

سمـير فـــراج

هُدْبَةَ بن خَشْرَم

قتـل شـاعـراً... وقتلـه بيـت شعـر

هو هدبة بن خشرم بن كرز من بنى عامر بن ثعلبة من بادية الحجاز، وكان شاعرا متقدماً فصيحاً وراوية للحطيئة. كان هدبة مع رهط من قومه فى طريقهم من الشام للحجاز قاصدين الحج وكان معهم زيادة بن زيد وهو من بنى رقاش بن قرة وكانت مع هدبة أخته فاطمة فتغزل بها زيادة قائلاً:

عوجى علينا واربعى يافاطما ... مادون أن يرى البعير قائما

ألا ترين الدمع منى ساجما ... حذار دار منك لن تلائما

فعرجت مطرداً عراهما ... فعماً يبذ القطف الرواسما

وأطال زيادة فى قصيدته فيغضب هدبة ورد عليه بأن تغزل فى أخته وكانت تسمى أم خازم، فقال:

لقد أرانى والغلام الخازما ... نزجى المطى ضُمراً سواهما

متى تظن القلص الرواسما ... والجلة الناجية العياهما

يبلغن أم خازم وخازما ... إذا هبطن مستخيرا قاتماً

فسبه زيادة، ورد عليه هدبة وطال بينهما ذلك حتى صاح بهم القوم: اركبا لاحملكما الله، فإنا قوم حجاج، وخشوا أن يقع بينهما شر فظلوا يعظونهما حتى سكت كل منهما على مافى نفسه. لكن هدبة كان أشد حنقا على زيادة ورأى أنه غلبه وضامه فقد تغزل فى أخته فاطمة وهى حاضرة سامعة، بينما تغزل هدبة فى أم خازم أخت زيادة وهى غائبة لاتسمع غزله فيها فمضيا ولم يكلم أحدهما الأخر حتى تضيا حجهما وعادا إلى مضارب قوميهما. ومن يومها صارت عداوة بين هدبة وزيادة، ظهرت بوادرها فى المعارضات الشعرية، فكان

كل منهما يحاول العلو على صاحبة فى الشعر ويرد الثانى محاولاً أن يبز قول الأول، ومن ذلك ماقاله زيادة:

أراك خليلاً قد عزمت التجنبا	وقطعت حاجات الفؤاد فأصحبا
فهلا صرمت والحبال متينة	أميمة إن واشٍ وشى وتكذبا
إذا خفت شك الأمر فارم بعزمة	غيابته يركب بك الحزم مركبا
يلام رجال قبل تجريب غيبهم	وكيف يلام المرء حتى يجربا

فرد عليه هدبة بقوله:

تذكر شجواً من أميمة منصبا	تليداً ومنتاباً من الشوق مجلبا
تذكر حبا كان فى ميعة الصبا	ووجداً بها بعد المشيب معتبا
إذا كان ينساها الفؤاد ذكرتها	فيالك من عنى الفؤاد وعذبا
غدا فى هواها مستكينا كأنه	خليع قداح لم يجد متنشبا

لكن هدبة لم يشفه ماقال من شعر ولم يشعر بزهو الانتصار على خصمه، فلم يزل يتحين الفرصة للانتقام من زيادة حتى وجدها فقتله. وكان سعيد بن العاص واليا على المدينة، فهرب هدبة مخافة القصاص، فجاء بن العاص بأهله وحبسهم، ولما علم هدبة بذلك، رجع وأمكن من نفسه ليخلص أهله، فأرسله بن العاص إلى معاوية ليرى فيه أمره، فلما صاروا بين يدى معاوية، قال عبد الرحمن أخو زيادة: ياأمير المؤمنين أشكو إليك مظلمتى وقتل أخى وترويع نسوتى..فقال معاوية: ياهدبة قل، فقال هدبة: إن شئت أن أقص عليك قصتنا كلاما أو شعراً فعلت، قال: لا، بل شعراً، فقال هدبة مرتجلاً:

رُمينا فرامينا فصادف رمينا ... منايا رجال فى كتاب وفى قدر

وأنت أمير المؤمنين فما لنا ... وراءك من معدى ولاعنك من قصر

فإن تك فى أموالنا لم نضق بها ... ذراعاً وإن صبراً فنصبر للصبر

فقال له معاوية: أراك قد أقررت بقتل صاحبهم

قال هدبة: هو ذاك

ولم يكن لزيادة ولد إلا فتى صغير يسمى «المِسْوَر» لم يبلغ الحلم فقال معاوية لعبد الرحمن أخى زيادة: إنك لاتؤمن على أخذ الدية أو قتل الرجل بغير حق، والمسور أحق بدم أبيه، ورده معاوية إلى المدينة فحبس بها ثلاث سنوات حتى بلغ المسور، وخلال سنوات حبسه كان هدبة يرسل إلى عبد الرحمن يستعطفه ويرجوه أن يقبل الدية، لكن عبد الرحمن أيأسه من ذلك وأصر على القصاص. ولما بلغ المسور بن زيادة الحلم أخذه عمه عبد الرحمن إلى والى المدينة سعيد بن العاص، فأخرجوا هدبة ليقتل وبينما كان هدبة ماشياً من السجن للقتل، التفت فرأى زوجته وكانت من أجمل النساء، فقال لها:

اقلى علىَّ اللوم ياأم بوزعا ... ولاتعجبى مما أصاب فأوجعا

ولاتنكحى إن فرق الدهر بيننا ... أغم القفا والوجه ليس بأنزعا

وحلى بذى أكرومة وحمية ... وصبرا إذا ماالدهر عض فأسرعا

فقالت زوجته للوالى: إن لهدبة عندى وديعة فأمهله حتى آتيه بها. فقال لها الوالى: أسرعى فإن الناس قد كثروا. فذهبت إلى جزار فى السوق وأخذت منه شفرته ثم جدعت أنفها من أصله وقطعت شفتيها ثم رجعت إلى هدبة وقالت: أترانى متزوجة بعد ماترى؟

قال هدبة: لا، الآن طابت نفسى بعد بالموت، ثم التفت فرأى أبويه فى أسوأ حال وقد توقعا الشكل، فقال لهما:

أبليـاني اليـوم صـبـراً منكمـا ... إن حـزناً إن بـدا بـادىء شـر

لاأرانـى اليـوم إلا مـيـتـا ... إن بعـد الموت دار المسـتـقـر

اصـبـرا اليـوم فـإنى صـابـر ... كـل حـى لقـضـاء وقـدر

اقتربت ساعة هدبة، وبلغت القلوب الحناجر، فهذا أول من أُقيد منه فى الإسلام، وراحت العيون تتحاور والأنفاس تتنافر، وراحت أمه تذكر قول الكاهنة التى رأت أبناءها الأربعة فقالت لها: إن الذى معى يخبرنى عن بنيك هؤلاء بأمر، قالت وماهو؟ قالت: أما هدبة وأخوه حوط فيقتلان صبرا، وأما الواسع وسيحان فيموتان كمداً.

أراد سعيد بن العاص أن يبذل محاولة أخيرة، فقال لعبد الرحمن أخى زيادة: اقبل الدية وأنا أعطيك مالم يُعطَه أحد من العرب، أعطيك مائة ناقة حمراء، ليس فيها جداء ولا ذات داء فقال عبد الرحمن: والله لو نقبت لى قبتك هذه ثم ملأتها ذهبا، مارضيت بها من دم هذا الأجدع، فلم يزل سعيد يسأله ويزيد فى عرضه فيأبى، ثم قال عبد الرحمن: إنه قال بيتاً لو لم يقله لقبلت الدية أو صفحت بغير دية، والله لو أردت شيئاً من ذلك لمنعنى قوله:

لنجـدعـن بأيـدينـا أنوفكـمُ ... ويـذهب القـتل فـيـمـا بيننا هدرا

فدفعوا بهدبة ليقتل فبدت فى عينيه حسرة، وماندم بَشَرٌ على قول كما ندم هدبة على قوله هذا البيت، واستأذن فى أن يصلى ركعتين، فأذن له، فصلاهما وخفف، ثم التفت إلى الناس حوله وقال: لولا أن يُظَن بى الجزع لأطلتهما فقد كنت محتاجا إلى إطالتهما، ثم

التفت إلى قوم زيادة قائلاً:

فـإن تقـتلونى فى الحـديد فـإننى ... قـتلت أخـاكم مطلقـاً لم يقـيـد

فقال عبد الرحمن: والله لانقتله إلا مطلقاً من وثاقه، ثم قال:

قـد علمت نـفـسى وأنت تعلمـه ... لأقـتلـن اليـوم مـن لاأرحـمـه

ثم دفع السيف إلى المسور بن زيادة وقال له: قم فـاقتل قاتل أبيك، فـقام المسور فـضربه ضربتين قتله فيهما. ومات هدبة، أما امرأته التي جـدعت أنفها وقطعت شفتيها فقد تزوجت بعده وأنجبت ولدين.

كعب الأشقرى

هجا بن أخيه فقتله بتحريض من بن المهلب

هو كعب بن معدان الأشقرى، من قبيلة الأزد، كان خطيباً وشاعراً، من المعدودين فى الشجعان، وكان من أصحاب المهلب بن أبى صفرة وقد مدحه ومدح أبناءه ورافقهم فى حروبهم مع الأزارقة، وقد أوفده المهلب بن أبى صفرة إلى الحجاج مبشراً بانتصاره على الأزارقة فأنشده من مدائحه فيهم قوله:

لولا المهلب مازرنا بلادهمُ ... مادامت الأرض فيها الماء والشجر

ومامن الناس من حى علمتهمُ ... إلا يُرى فيهمُ من سيبكم أثر

فما يجاوز باب الجسر من أحد ... قد عضت الحرب أهل الجسر فانجحروا

فضحك الحجاج وقال له إنك لمنصف ياكعب، أخطيب أنت أم شاعر فقال شاعر وخطيب، فقال له كيف كانت حالكم مع عدوكم؟ قال: كنا إذا لقيناهم بعفونا وعفوهم أيسنا منهم، فإذا لقيناهم بجهدنا طمعنا فيهم، قال الحجاج: فكيف كان بنو المهلب؟ قال: حماة للحريم نهاراً وفرسان بالليل أيقاظا، قال صفهم رجلاً رجلاً، قال: المغيرة فارسهم وسيدهم، نار ذاكية وصعدة عالية، وكفى بيزيد فارسا شجاعاً، ليث غاب وبحر جم العباب، وجوادهم قبيصة ليث المغار وحامى الدمار، ولايستحى الشجاع أن يفر من مدركة، فكيف لايفر من الموت الحاضر والأسد الخادر وعبد الملك سم ناقع وسيف قاطع، وحبيبُ الموتُ الزعاف، إنما هو طود شامخ وفخر باذخ. قال الحجاج: فأيهم أفضل؟ قال كعب: هم كالحلقة المفرغة لايعرف طرفاها، قال: فكيف جماعة الناس؟ قال: على أحسن حال، أدركوا مارجوا، وأمنوا ماخافوا، وأرضاهم العدل وأغناهم النفل، قال: فكيف رضاهم عن المهلب؟ قال: أحسن رضى وكيف لايكونون كذلك وهم لايعدمون منه رضى الوالد ولايعدم منهم بر الولد. فقال الحجاج: المهلب كان أعلم بك حيث بعثك وأمر له بعشرة آلاف درهم وأرسله إلى عبد الملك بن مروان بهذه البشرى، فأنشده كعب قوله فى المهلب

وأولاده:

بــراك اللــــه حــين بــــراك بحــراً	وفــجــر منــك أنهـــاراً غـــزارا
بنوك الســـابقـــون إلى المعـــالى	إذا مـــاأعظـم النــاس الخطـــارا
كـــأنهمُ نجــوم حــول بـــدر	درارى تكمل فــــاســـتــــدارا

فاستحسن عبد الملك قوله، وقال لمن حوله من الشعراء: يامعشر الشعراء، تشبهوننا بالأسد الأبخر، والجبل الوعر والملح الأجاج؟ ألا قلتم كما قال كعب فى المهلب وولده، وأنشدهم قصيدة أخرى لكعب يمدح فيها المهلب.

وهكذا عرف كعب الأشقرى بولائه للمهلب وأبنائه من بعده خاصة يزيد الذى كان يقربه ويخلع عليه العطايا والهبات.

ولمكانته عندهم كانوا لايسمحون للشعراء بهجائه، بل المهلب نفسه تدخل بين الأزد - قبيلة كعب - وعبد القيس حينما قامت بينهما حرب، فسكنها وأصلح بينهما وتحمل ماأحدثه كل فريق وأدى دياته، لكن كعبا هجا عد القيس بقوله:

إنى وإن كنت فــرع الأزد قــد علمــوا	أخـزى إذا قــيل عــبـد القــيس أخــوالى
فــهم أبــو مــالك بـالمجـــد شــرفنى	ودنس العــبـد عــبـد القــيس ســربالى

وكان فى عبد القيس شاعر هجاء يسمى زياداً الأعجم، وقد بلغه قول كعب فغضب وقال: ياعجباً للعبد بن العبد بن الحيتان والسرطان، يقول هذا فى عبد القيس وهو يعلم موضعى فيهم والله لأدعنه وقومه غرضاً لكل لسان، ثم قال يهجوه:

نبـئت أشقــر تهـجـونا فــقلت لهم	مــاكنت أحــسـبـهم كـانوا ولاخلقـوا

لايكثرو وإن طالت حياتهمُ ولو يبول عليهم ثعلب غرقوا

قوم من الحسب الأدنى بمنزلة كالفقع بالقاع لاأصل ولاورق

إن الأشاقر قد أضحوا بمنزلة لو يرهنون بنعلى عبدنا غلقوا

فشكاه كعب إلى المهلب وقال له:إنك المقصود بهذا الهجاء، فقال المهلب: أنت أسمعتنا هذا وأطلقت لسانه فينا به وقد كنت غنياً عن هجاء عبد القيس وفيهم مثل زياد، فاكفف عن ذكره فأنت الذى بدأته، ثم دعا بزياد فعاتبه، فقال زياد: أيها الأمير، قد سمعت ماقاله فيَّ وفي قومي، فإن كنت ظلمته فانتصر له، وإلا فالحجة عليه، ولاحجة على امرىء انتصر لنفسه ولحسبه وعشيرته، ولولاك أيها الأمير ماقصرت فى هجائه. فأقسم المهلب عليهما أن يصطلحا، فكف كل منهما عن الآخر.

وهكذا كانن المهلب يدافع عن كعب بمنصبه ويدافع عنه كعب بشعره. وكان الحجاج قد كتب إلى المهلب يأمره بمناجزة الأزارقة ويستبطئه ويضعفه ويعجزه فى تأخير أمرهم ومطاولتهم.

فقال المهلب لرسول الحجاج: إنما البلاء أن الأمر لمن يملكه لا إلى من يعرفه، فإن كنت نصبتنى لحرب هؤلاء القوم على أن أدبرها كما أرى، فإن أمكنتنى الفرصة انتهزتها، وإن لم تمكنى توقفت، فأنا أدبر ذلك بما يصلحه، فإن أردت منى أن أعمل وأنا حاضر برأيك وأنت غائب، فإن كان خيراً فلك، وإن كان شراً فعليَّ فابعث من رأيت مكانى.

فقام كعب الأشقرى فأنشد أمام رسول الحجاج قوله:

إن بن يوسف غره من غزوكم خفض المقام بجانب الأمصار

لو شاهد الصفين حين تلاقيا ضاقت عليه رحيبة الأقطار

من أرض سابور والجنود وخيلنا مثل القداح بريتها بشفار

من كل خنذير يرى بلبانه وقع الظبات مع القنا الخطار

ورأى معاودة الدباغ غنيمة أزمان كل مخالف الأقتار

فدع الحروب لشيبها وشبابها وعليك كل خريدة معطار

فبلغت هذه الأبيات إلى الحجاج فكتب إلى المهلب يأمره بإرسال كعب إليه، فأعلم المهلب كعباً بذلك، وأرسله إلى عبد الملك بن مروان ومعه رسالة يسترضيه فيها عن كعب، فرضي عبد الملك عنه، ولمكانة الحجاج عند بني أمية رأى عبد الملك أن يرسل كعباً إليه بكتاب منه وفيه يقسم عليه أن يعفو عنه ويعرض عما بلغه من شعره. فلما وصل كعب إلى الحجاج قال له: إيه ياكعب.

ورأى معاودة الدباغ غنيمة، فقال كعب: أيها الأمير والله قد وددت فى بعض ماشاهدته فى تلك الحروب وأزماتها وفى مايوردنا المهلب من خطرها أن أنجو منها وأكون حجاما أو حائكاً، فقال له الحجاج: أولى لك، لولا قسم أمير المؤمنين لما نفعك ماأسمع، فالحق بصاحبك ورده إلى المهلب.

ويبدو أن علاقة كعب لم تكن طيبة مع يزيد بن المهلب فكان يحرض عليه الولاة ويدفعهم إلى ترك أعماله، وكان يزيد قد ولى عمرً بن عُمير بلدة بحرية بين البصرة وعمان يقال لها «الترم» فقال له كعب: أنت شيخ من الأزد يوليك «الترم» ويولى ربيعة الأعمال السنية! ثم أنشده قوله:

لقد فازت ربيعة بالمعالى وفاز اليحمدى بعهد زمّ

فإن تك راضيا منهم بهذا فزادك ربنا غما بغم

فلما سمع عمرو بن عمير اليحمدى هذا الشعر من كعب أنف أن يقبل هذه الولاية ورد عهد يزيد عليه، فحلف يزيد ألا يستعمله سنة، فكانت سنة جدب وفقر على عمرو الذى ندم على ترك هذه الولاية وقال لكعب:

لو كنت خليتنى ياكعب متكئاً ... فى دور زمٍّ لما أقفرت من علف

ومن نبيذ ومن لحم أعل به ... لكن شعرك أمر كان من خرفى

إن الشقى بمرو من أقام بها ... يقارع السوق من بيع ومن سلف

ولما عزل يزيد بن المهلب عن خراسان ووليها قتيبة بن مسلم مدحه كعب، ونال من يزيد وثلبه وهجاه، ثم بلغه أن يزيد قد وليها مرة أخرى، فهرب كعب تاركاً مرواً وخراسان كلها إلى عمان وأقام بها فترة ثم كرهها لسوء أحواله بها ولم يجد بها من يمدحه ويقربه ويعطيه، فكتب إلى يزيد بن المهلب معتذراً:

بئس التبدل من مرو وساكنها ... أرض عمان وسكنى تحت أطواد

يضحى السحاب مطيراً دون منصفها ... كأن أجبالها علت بفرصاد

يالهف نفسى على أمر خطلت به ... وماشفيت به غمرى وأحقادى

أفنيت خمسين عاماً فى مديحكمُ ... ثم اغتررت بقول الظالم العادى

أبلغ يزيد قرين الجود مالكة ... بأن كعباً أسير بين أصفاد

فإن عفوت فبيت الجود بينكمُ ... والدهر طوران من غى وإرشاد

وإن مننت بصفح أو سمحت به ... نزعت نحوك أطنابى وأوتادى

لكن يزيد لم يسامحه ولم يصف له على الرغم من أن أبنه مجزأة رجاه فى ذلك، فداهنه

يزيد حتى رجع وتخير له قاتلاً من قرابته هو ابن أخيه الذى كانت بينهما عداوة وتباعدو قد هجاه كعب بقوله:

إن السواد الذى سربلت تعرفه ... ميراث جدك عن آبائه النوب

أشبهت خالك، خالك اللوم مؤتسياً ... بهديه سالكاً فى شر أسلوب

فلم يجد بن المهلب إلا ذلك الفتى ليقتل عمه، وقد أغراه بالمال.

عَبيد بن الأبرص

رثى نفسه.... فقتله المنذر بن ماء السماء

هو عَبيد بن الأبرص بن جشم، من بنى أسد التى قتلت حُجراً ملك كندة وأبا امرىء القيس.

اعتبره محمد بن سلام الجمحى من فحول شعراء الجاهلية ووضعه فى الطبقة الرابعة مع طرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة وعدى بن زيد. وقد أحاطت الأساطير بسيرة عبيد بن الأبرص كما لم تحط بشاعر قبله، فهناك قصة حول قوله الشعر، أو هى أسطورة إذا أعملنا عقولنا فيها، ونحن لانملك غير ذلك.

تقول القصة إن عبيدا كان رجلاً فقيراً وقد أقبل ذات يوم بغنمه يسقيها ومعه أخته ماويا، فلما ورد الماء منعه رجل من بنى مالك وصده صداً عنيفاً، فرجع حزينا مهموماً لايدرى مايفعل ولايجد سبيلاً على هذا الرجل فاستظل بشجرات ونام، ونامت أخته إلى جواره، فنظر إليهما خصمه وقال راجزاً:

ذاك عبيد قد أصاب ميا يا ليته ألقحها صبيا

فحملت ووضعت ضاويا

وعلى الرغم من أن عبيداً كان جاهليا إلا أنه لم يجد من يستنصره على هذا الرجل وافتراءاته إلا الله، فرفع يديه مبتهلاً قائلاً: اللهم إن كان هذا ظلمنى ورمانى بالبهتان فأدلنى منه - أى اجعل لى منه دولة وانصرنى عليه - ووضع رأسه فنام.

ولم يكن قبل ذلك يقول الشعر، فأتاه آت فى المنام بكبة من شَعر فألقاها فى فمه، ثم قال له قم، فقام وهو يرتجز هاجياً بن مالك وكانوا يسمون بنى الزِنية، فقال فيهم:

يابنى الزنية ما غركمُ لكم الويل بسربال حُجُر

ثم أصبح عبيد بن الأبرص بعد ذلك شاعر بنى أسد الذى لايدافعه أحد.

وفى أسطورة أخرى كان عبيد مسافراً فى ركب من قومه وبينما هم يسيرون إذا بثعبان يتمعك على الرمال الملتهبة فاتحاً فمه من شدة العطش، وكانت مع عبيد جرعة ماء قليلة لايملك غيرها، فنزل وسقى الثعبان الجرعة كلها حتى روى وانتعش وانساب فى الرمال. فلما جن الليل ونام القوم هربت رواحلهم فلم يروا أثراً لشىء منها، فقام كل واحد منهم يبحث عن راحلته، فتفرقوا، وقد أيقن عبيد أنه هالك لامحالة، وإذا هو بهاتف يهتف به قائلاً:

يا أيها السارى المضل مذهبه ... دونك هذا البكر منا فاركبه

وبكرك الشارد أيضاً فاجنبه ... حتى إذا الليل تجلى غيهبه

فحط عنه رحلة وسيِّبه

فقال عبيد: نشدتك الله إلا أخبرتنى من أنت؟

فقال له الهاتف:

أنا الشجاع الذى ألفيته رمضاً ... فى قفرة بين أحجار وأعقاد

فجدت بالماء لما ضن حامله ... وزدت فيه ولم تبخل بإنكاد

الخير يبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ماأوعيت من زاد

فركب عبيد الجمل وظل يبحث عن ناقته حتى وجدها ثم جنبها - أى قادها بجانبه - فبلغ أهله مع الصباح فنزل عنه وحل رحله وخلاه فغاب عن عينه.

من الواضح أن هذه القصة أسطورة صاغتها أسفار العرب الطويلة فى رحلة من رحلات الشتاء أو الصيف، حيث الليالى لاتقطعها الرواحل وإنما تقطعها الأسمار العذبة والأشعار

البديعة والأخبار الغريبة.

ويحكى أسطورة ثالثة، سيف الكاتب، الذى ولى ولاية فنزل ببيت صديق له مر عليه، فأصابوا من الطعام والشراب ماأصابوا، ثم غلبهم النبيذ فناموا، فانتبه سيف من نومه فإذا بكلب قد دخل على كلب صاحب البيت، فأخذا يتصافحان وقد فرح كل منهما بصاحبه، ثم أخذ الكلب الزائر يخبر صاحبه عن طريقه وطول سفره، وسيف لاينكر من كلامهما شيئاً، وقال له: هل عندك شيء تطعمنيه؟ قال نعم قد بقى لهم فى موضع كذا وكذا طعام وليس عليه غطاء، فذهبا إليه وأكلاه، ثم سأله نبيذاً فقال: نعم، فذهبا إليه فشرباه، ثم قال له: هل تطربنى بشيء؟ قال: إى وعيشك، صوت كان أبو زيد يغنيه فيجيده، ثم غنى الكلب صاحبه من شعر عبيد بن الأبرص قوله:

طاف الخيال علينا ليلة الوادى لآل أسماء لم يلمم لميعاد

إنى اهتديت لركب طال سيرهمُ فى سبسب بين دكداك وأحقاد

فلم يزل الكلب يغنى صاحبه حتى فنى النبيذ، ثم استأذن الكلب الزائر فى الانصراف، فأذن له صاحبه.. ومضى.

يقول سيف الكاتب صاحب القصة: فخفت والله على نفسى أن أذكر ذلك لصاحب المنزل، فأمسكت. وماأذكر أنى سمعت أحسن من ذلك، إن لم تكن هذه القصة أسطورة فهي حلم رآه سيف الكاتب، ويبدو أن صاحبه الذى استضافه قد أحسن عشاءه وسقايته فلم يستطع أن يميز بين الحلم والحقيقة لفرط ماكان غارقاً فيه من شبع ورى.

أو ربما كان هناك شيء فى نفس سيف تجاه أبى يزيد المغنى، فحاك هذه القصة وحبكها ليقول للناس إن غناء الكلاب أحسن من غناء أبى يزيد.

وقد عاصر عبيد بن الأبرص امرأ القيس وكانت له جولة معه بعد أن رفض ماعرضه بنو أسد من دية لقتل أبيه أو تقديم شريف من أشرافهم مقيداً ليقتل بدم حُجر، لكنه أمهلهم حتى تضع الحوامل مافى بطونها وقد توعدهم قائلاً: ثم إنكم ستعرفوننى فى فرسان قحطان أحكم فيكم بالسيوف وشبا الأسنة حتى أشفى نفسى وأنال ثأرى، فقال عبيد فى ذلك:

ياذا المخوفنا بقتـ	ـل أبيه إذلالاً وحينا
أزعمت أنك قد قتـ	ـلت سراتنا كذباً ومينا
هلا على حجر بن أم	قطام تبكى لاعلينا
إنا إذا عض الثقاف	برأس صعدتنا لوينا
نحمى حقيقتنا وبعـ	ـض الناس يسقط بين بينا
هلا سألت جموع كنـ	ـدة يوم ولوا أين أينا
أيام نضرب هامهم	ببواتر حتى انحنينا
وجموع غسان الملو	ك أتينهم وقد انطوينا
لحقا أياطلهن قد	عالجن أسفاراً وأينا
نحن الألى فاجمع جمو	عك ثم وجههم إلينا
واعلم بأن جيادنا	آلين لايقضين دينا
ولقد أبحنا ماحميـ	ـت ولامبيح لما حمينا
كم من رئيس قد قتلـ	ـناه وضيم قد أبينا

ولــــــرب لمـــــــــــيد مــعــشـــر   ضـــخم الدســيـغــة قــد رمــينا

ولكن امرأ القـيس كان مـشغولاً بثـأر أبيه فلم يرد عليه ثـم دارت رحى الحرب بين كندة وبنى أسد حتى قتل قيصر الروم امرأ القيس وانتهت هذه الحرب.

مقتلـه

كان للملك المنذر بن ماء السماء يومان، يوم بؤس ويوم نعمة، فإذا كان فى يوم نعمة أتى بأول من يراه فحـباه وكسـاه وأعطاه من إبله مائة، ونادمـه يومه، فإذا كـان فى يوم بؤسه أتى بأول من يراه فيـأمر به فيذبح، وبينمـا النعمان جالس فى يوم بؤسـه إذ أشرف عليه عبـيد بن الأبرص، فقـال لرجل كان معه: من هذا الشـقى؟ فقال له: هذا عـبيـد بن الأبرص الأسدى الشاعريم فـأتى به، فقال له الرجل الذى كان معه: أتركـه أبيت اللعن، فإنى أظن أن عنده من حسن القـريض أفضل مما تدركـه فى قتله، فاسـمع منه، فإن سمـعت حسنا استـزدته وإن لم يعـجبـك فمـا أقـدرك على قتـله. فنزل المنذر وطعم وشـرب وهو جـالس وبينه وبين الناس حجاب يراهم منه ولايرونه، فدعا بعبيد من وراء الستر:

فقال لعبيد صاحب له: هلا كان الذبح لغيرك ياعبيد؟

فقال: أتتك بحائن رجلاه

فقال: ماترى ياعبيد؟

قال: أرى الحوايا عليها المنايا

فقال: فهل قلت شيئا؟

قال عبيد: حال الجريض دون القريض (وهو يقصد أنه قد غص بريقه)

فقال: أنشدني: أقفر من أهله ملحوب

لكن عبيداً لم يستطع أن يقولها وعزت عليه نفسه فرثاها بقوله:

أقـــفـــر من أهلـه عـــبـــيـــد فـلـيـــس يـبـــدى ولايـعـــيـــد

عـنـت لـــه خـطـــة نـكـــود وحــــان منهـــا لـــه ورود

فقال له صاحبه: أنشدني ويحك

فقال:

هى الخمر تُكنى بأم الطلى كما الذئب يكنى أبا جعدة، وهو هنا يشبه المنذر بالذئب الذى يكنيه الناس بأبى جعدة أى أبو الفعال الحسنة ولكن أفعاله كلها سوء وهو يقصد أن المنذر لاينذر أحداً بل يغدر بالجميع وأبى عبيد أن ينشدهم شيئاً مما أرادوا فأمر به المنذر فقتل.

أبو العبَرّ

كان أحمق العرب ، فقتلته شيعة على

هو أبو العباس محمد بن أحمد وينتهى نسبه إلى العباس بن عبد المطلب وكان فى شبابه شاعراً معتدلاً جيد الشعر فلما شاخ ترك الجد وعدل إلى الحمق حتى إن تاريخ الأدب العربى لم يرَ شاعراً أحمق منه، ومع ذلك فقد كسب بحمقه أضعاف ماكان يكسبه الشعراء بالجد والجيد وحقق أيام المتوكل شهرة كبيرة وثراءً عظيماً.

وعلى الرغم من أنه كان بن عم الخليفة إلا أن الناس كانوا يحتقرونه بل ويتعجبون من تقريب المتوكل له مع أنه معرة لبنى آدم جميعا فضلاً عن أهله الأقربين.

فهو أحمق جاهل فاسق بينما كان قوم آخرون يرون أن هذه الصفات ليست متأصلة فيه وإنما هو يفتعلها للكسب بعد أن رأى أشعار أبى تمام والبحترى وغيرهما من كبار الشعراء لاتفيد شيئاً ولاتحقق ثراء، وكان فريق ثالث يرى أن يكون الشعر جيداً جيداً أو بارداً بارداً مثل شعر أبي العبر، فكانوا يضربون بشعره المثل فى السخف والبرود.

أنشده صاحبة أبو العناء، قول المأمون:

ما الحب إلا قبلة ... ومس كف وعضد

أو كتب فيها رقى ... أنفذ من نفث العقد

من لم يكن ذا حبة ... فإنما يبغى الولد

ما الحب إلا هكذا ... إن نكح الحب فسد

فقال أبو العبر: كذب المأمون وأخطا وأساء، ألا قال كما قلت:

وباض الحب فى قلبى ... فوا ويلى إذا فرخ

وأتبع هذا البيت ببيتين لم تعرف العرب أفحش منهما ثم سأل صاحبه: كيف ترى؟

فقال: عجباً من العجب، قال أبو العبر: ظننت أنك تقول لا، فأبل يدى و أرفعها ثم سكت فبادر صاحبه وانصرف خوفاً من شره.

وكما كان للشعراء طقوسا فى إنشادهم وإملائهم أشعارهم كانت لأبى العبر طقوسه التى تتناسب تماماً مع شخصيته، فقد كان يجلس على سلم وبين يديه إناء فيه ماء لجس وحمأة وبجانبه قصبة طويلة وعلى رأسه نعل وفى رجليه قلنسيتان بينما يجلس مستمليه فى جوف بئر وحوله ثلاثة رجال يدقون بالهواوين حتى تكثر الضوضاء ويقل السماع ويملى على الرجل، فإن ضحك أحد ممن حضر قاموا فصبوا على رأسه من ماء «البلاعة» إن كان وضيعاً، فإن كان ذا مروءة رش عليه هو من مائها بالقصبة ثم يحبس فى الكنيف إلى أن ينفض المجلس ولايخرج منه حتى يغرم درهمين.

سأله أعرابى عن هذه المحالات التى يتكلم بها وكيف يصل إليها فقال: أبكر فأجلس على الجسر ومعى الحبر والورق فأكتب كل شيء أسمعه من كلام الذاهب والجائى حتى أملأ الورق من الوجهين، ثم أقطعه عرضاً وألصقه مخالفاً، فيجيء كلام ليس فى الدنيا أحمق منه.

ولم يكن سلوكه أقل حمقاً من شعره، وقد رآه أعرابى واقفا على شجرة فى واد بمنطقة سُرَّ من رأى وفى يده اليسرى قوس يرمى به كرات من الطين وعلى يده اليمنى عقاب، وعلى رأسه قطعة من رئة عنز ربطها فى حبل مشدود بأنشوطة وعلى شفتيه آثار من شراب التمر وكان عارياً يربط على خصره شعراً مفتولاً وقد شد فيه شص قد ألقاه فى الماء للسمك. فقال له الأعرابى: خرب الله بيتك أى شيء هذا العمل؟ فرد عليه أبو العبر قائلاً: أصطاد ياأحمق بكل جوارحى، إذا مر بى طائر رميته عن القوس وإن سقط قريباً منى أرسلت إليه العقاب، والرئة التى على رأسى يجيء الحدأ ليأخذها فيسقط فى الحبل وقد

جعلت فى طرفه الأنشوطة، وشراب التمر على شفتى أصطاد به الذباب فأجعله فى الشص فيطلبه السمك فيقع فيه، والشص فى خصرى فإذا مرت به السمكة أحسست بها فأخرجتها.

ويبدو أن أبا العبر قد أعيا المتوكل أمره ولم يستطع معاقبته عقاباً صارماً، لقرابته من ناحية، ولأنه كان يظن به الجنون من ناحية أخرى، فكان يضعه فى المنجنيق ويرمى به إلى الماء، فكان إذا علا فى الهواء صاح: الطريق الطريق، جاءكم المنجنيق، ثم يقع فى الماء فيخرجه السباح، وفى مرة أخرى كان المتوكل يجلسه على زلاقة فينحدر فيها حتى يقع فى بركة ثم يأمر رجاله فيطرحوا الشبكة فيخرجوه.

وفى ذلك يقول أبو العبر:

ويأمـــــر بى الملـــــك	فـــــيطرحنى فى البــــرك
ويصطادنى بالشـــبك	كـــأنى مـــن الســـمك
ويضــــحك كك كك	كـــك ككــــــك

وامتدت حماقات أبى العبر إلى بغداد فحبسه إسحاق بن إبراهيم المصعبى، وبينما هو فى محبسه صاح فى الحرس: لى نصيحة، فأخرجوه إلى إسحاق فقال: هات نصيحتك، فقال: على أن تؤمنني، قال إسحاق: قد أمنتك، قال أبو العبر: الكشكية أصلحك الله لاتطيب إلا بالكشك، فضحك إسحاق وقال: هو والله مجنون، فقال أبو العبر: لاهو امتخط حوتاً، فقال: ماتقصد بقولك امتخط حوتاً؟ فقال أبو العبر: زعمت أنى مججت نوناً ومافعلت إلا امتخطت حوتاً، فكلمة مجنون قسمها أبو العبر إلى قسمين أولهما مج ويرادفهما امتخط وثانيهما نون ومرادفها حوت.

ففهم إسحاق ماقاله وتبسم وقال: أظن أنى فيك مأثوم، فقال: لا ولكنك فىّ ماء بصل،

فقال إسحاق: أخرجوه عنى إلى لعنة الله ولايقيم ببغداد ولايوماً واحداً فأرده إلى الحبس فعاد أبو العبر إلى سُرَّ من رأى.

ويبدو أن حماقته وفحشه كانا سببا فى ضياع أغلب شعره، فلم يورد له الأصفهانى فى كتابه «الأغانى» إلا بضع مقطعات صغيرة ولم تزد على ذلك المراجع العربية القديمة الأخرى، فلم أعثر له فى الغزل إلا على مقطعة صغيرة خالية من الحمق والسخف والخروج الذى اشتهر به، ويبدو أن قاله قبل أن يغير منهجه فى الحياة وفى الشعر، وهى بجودتها تشير إلى شاعر غَزِل متمكن ذى حس مرهف وقلب نابض بالهوى، يقول فيها:

داء دفين وهوى بادى	أظلم فجازيك بمرصاد
ياواحد الأمة فى حسنه	أشمت بى صُدك حسادى
قد كدت مما نالنى فى الهوى	أخفى على أعين عوادى
عبدك تحيى نفسه قبله	يجعلها خاتمة الزاد

إن نظرة لهذه الأبيات تجعلنى أشك فى أن قائلها اختار بمحض إرادته العدول عن هذا الشعر ليقول ماقاله من أبيات حمقاء سخيفة، ولست مع من تعللوا له بالرغبة فى الثراء الذى لم يحققه غيره من الشعراء الجادين المجيدين، فقد كان أبو العبر ذا قرابة من الخليفة وهذا وحده كفيل بأن يغنيه أمير المؤمنين كما أغنى غيره من أقربائه، فضلاً عن عامة المسلمين.

ولكننى أرجح أن لوثة قد أصابت عقله فتحول هذا التحول الغريب، وهذا ليس غريبا على الشعراء فهم لرقة إحساسهم من ناحية ولعبقريتهم من ناحية أخرى، أقرب الناس إلى الإصابة بالجنون، وتاريخ الأدب العربى ملىء بالشعراء المجانين أو المجانين الشعراء كقيس

بن الملوح صاحب ليلى الذى لم يشتهر باسمه وإنما اشتهر بصفة الجنون.

ولأبى العبر أبيات فى الفخر تدل على أن قائلها صاحب نفس أبية عزيزة يصعب عليها أن تتحول بهذا الشكل، طلباً للمال، يقول:

وإذا ماالدهر ضعضعنى	لم تجدنى كافر النعم
قنعت نفسى بما رزقت	وتناهت فى العلا هممى
ليس لى مال سوى كرمى	وبه أمنى من العدم

مقتله

ويبدو أن جنونه لم يبد فى شعره وفى سلوكه فحسب وإنما بدا أيضا فى موقفه المذهبى، فقد كان شديد البغض لعلى بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وله فى العلويين هجاء قبيح، ويبدو أن المراجع لم تورد هذا الهجاء تكرمة لعلى وهو فى الأمة من هو، وكان أبو العبر قد خرج إلى الكوفة ليرمى بالبندق مع الرماة من أهلها فى الأشجار والكوفة موطن شيعة على فقال فيه أبو العبر شعراً قبيحاً سمعه أحد الكوفيين فاستحل دمه وقتله وأغرقه.

السُليك بن السُلكة

كان من الصعاليك
واستجار بقوم وهجاهم فقتلوه

هو السليك بن عمرو من بنى مقاعس، أما السلكة فهى أمه وكانت أمه سوداء.

كان السليك من صعاليك العرب وهى طائفة من الشعراء ضمت الشنفرى وتأبط شراً وعمرو بن براق ونفيل بن براقة وغيرهم، وكانوا يعيشون حياة مختلفة عن حياة العرب، فهم على فقرهم يتميزون بالأنفة والإباء والترفع عن الصغائر والدنايا وحقير الأعمال، بل يعتمدون فى حياتهم على القوة والبطش وانتهاز الفرص وخفة الحركة وسرعة العدو والهجوم الخاطف والسلب والنهب والبطش بالأعداء مع الحرص على البر بالضعفاء والمحتاجين.

وكثرت أشعاهم التى تلعن الصعلوك الفقير الذى يرضى بالاستكانة والمهانة ويألف الكسل والخمول، ويكتفى فى طعامه بأن يبحث فى المهملات عن بقايا اللحوم الملقاة، وإذا جاد عليه صديق بأكلة، عد نفسه من الأغنياء، بينما تمجد هذه الأشعار الصعلوك الأبى الذى لاينال الفقر من قوة شخصيته ومهابته التى يحسب لها الأعداء ألف حساب مهما كانوا منه قريبين أو بعيدين، فهو يملأ النفوس رهبة وفزعاً، فإذا عاش، عاش كريما، وإذا مات مات حميدا.

وكان السليك من أشد رجال العرب وأشعرهم، وكانت العرب تسميه سليك المقانب حيث كان أعلمهم بمسالك الصحراء ودروبها وأشدهم عدوا على رجليه فكانت الخيل لاتدركه.

وكان يعتمد على قوته فيغير وحده على قبائل فينهبها وربما رافقه فى غارته صعلوك أو اثنان، وكان للسليك دعاء مشهور يقول فيه: اللهم إنك تهىء ماشئت لما شئت إذا شئت، اللهم إنى ولو كنت ضعيفاً، كنت عبداً، ولو كنت امرأة، كنت أمة، اللهم إنى أعوذ بك من

الخيبة، فأما الهيبة فلا هيبة.

اشتد الفقر على السليك فخرج ليلاً على رجليه عسى أن يصيب غرة من بعض مَن يمر عليه فيأخذ إبله، ولما طال انتظاره وضع رأسه على عضده ونام فى الخلاء، فجاء رجل ونام إلى جواره، فقال له السليك: من أنت؟ فقال: أنا رجل افتقرت فقلت لأخرجن فلا أرجع إلى أهلى حتى استغنى، قال السليك: انطلق معى إذن، فانطلقا معاً فوجداً رجلاً له مثل فقرهما فانطلقا الثلاثة يبحثون عمن ينهبونهم حتى بلغوا وادياً فيه إبل كثيرة، فقال السليك لصاحبيه: كونا قريباً منى حتى أعلم لكما علم الحى أقريب أم بعيد، فإن كانوا قريباً رجعت إليكما، وإن كانوا بعيداً قلت لكما قولا أو أومىء إليكما به، فأغيرا.

وانطلق حتى أتى الرعاء وأخذ يستدرجهم فى القول حتى أخبروه بمكان الحى وعرف أنهم بعيد، فقال للرعاء: ألا أغنيكم؟ فقالوا: بلى، غننا فرفع صوته وغنى:

ياصاحبى ألا لاحى بالوادى	سوى عبيد وأم بين أذواد
اتنظران قريباً ريث غفلتهم	أم تغدوان فإن الريح للغادى

فلما سمع صاحباه ذلك أتياه وأخذوا الإبل وذهبوا بها ولم يبلغ صياح العبيد الحى حتى كان السليك وصاحباه فى مأمنهم.

والقصص التى تصور شدة السليك وسرعته فى العدو كثيرة وقد رأته طلائع جيش بكر بن وائل وكانوا يقصدون قومه فقالوا: إن علم السليك بنا أنذرهم، فبعثوا إليه فارسين على جوادين، فلما طارداه ظل يجرى على رجليه كأنه ظبى، وأمضيا النهار كله وراءه، ثم قالا: إذا كان الليل أعيا ثم سقط أو قصر عن العدو فنأخذه، فلما أصبح الصباح تبعاه فوجدا أثره

متباعدا فعلما أنه مايزال قويا، وخافا على نفسيهما الضياع فى الصحراء، فقالا: والله لانتبعه أبداً وانصرفا عنه، ووصل السليك إلى قومه فأنذرهم، فكذبوه لبعد الغاية، فأنشأ يقول:

يكذبنى العمران، عمرو بن جندب ... وعمرو بن سعد والمكذب أكذب

ثكلتكما إن لم أكن قد رأيتها ... كراديس يهديها إلى الحى موكب

كراديس فيها الحوفزان وقومه ... فوارس همام متى يدع يركبوا

وجاء الجيش فأغاروا على القوم فعلموا أن السليك كان صادقاً.

وكان السليك إذا شرب الماء ثقل وقلت سرعته، وقد أغار على قوم من بنى مالك، فلم يظفر منهم بفائدة وأرادوا الإمساك به، فقال شيخ منهم: إنه إذا عدا لم يتعلق به شىء فدعوه حتى يرد الماء فإذا شرب وثقل لم يستطع العدو وظفرتم به.

فأمهلوه حتى ورد الماء، فشرب ثم بادروه، فلما علم أنه مأخوذ خاتلهم، وقصد أقرب بيوتهم حتى دخل على امرأة منهم تسمى «فكيهة» فاستجار بها، فمنعته وجعلته تحت درعها واستلت السيف وقامت دونه فكثر عليها القوم فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت بإخوتها فجاؤها ودفعوا عنه حتى نجا من القتل، فقال فى ذلك:

لعمر أبيك والأنباء تنمى ... لنعم الجار أخت بنى عوارا

من الخفرات لم تفضح أباها ... ولم ترفع لإخوتها شنارا

وماعجزت فكيهة يوم قامت ... بنصل السيف واستلبوا الخمارا

كان السليك يعطى رجلاً من خثعم يسمى عبد الملك بن مويلك إتاوة من غنائمه على أن يجيره، فيتجاوز بلاد خثعم إلى من وراءهم من أهل اليمن فيغير عليهم.

وقد لقى سليك رجلاً من خثعم يقال له مالك بن عمير خارج أرضه ومعه امرأته وتسمى النوار، فأسرهما السليك فقال له الرجل: أنا أفدى نفسى منك، فقال السليك: على ألا تخيس بى ولاتطلع علىّ أحداً من خثعم، فحالفه على ذلك وترك امرأته رهينة عنده ورجع إلى قومه، فأصاب السليك النوارَ فأحبته وجعلت تقول له إحذر خثعم فإنى أخافهم عليك، فقال:

تهددنى كى أحذر العام خثعما	وقد علمت أنى أمرؤ غير مسلم
وماخثعم إلا لئام أرقة	إلى الذل والإسخاف تنمى وتنتمى

فبلغ ذلك الشعر رجلين من خثعم هما شبل بن قلادة وأنس بن مدرك، فقالا: أيقول ذلك فينا ونحن مجيروه؟

فلم يشعر السليك إلا وقد أدركاه فى الخيل والسلاح والرجال فأنشأ يقول:

من مبلغ حرباً أنى مقتول	يارب نهب قد حويت عثكول
ورب قرن قد تركت مجدول	ورب زوج قد نكحت عطبول
وررب عان قد فككت مكبول	ورب واد قد قطعت مشبول

فقال أنس لشبل: إن شئت كفيتك أصحابه واكفنى السليك، وإن شئت اكفنى أصحابه أكفك السليك.

فقال شبل: بل أكفيك أصحابه.

فشد شبل وأصحابه على أصحاب سليك فقتلوهم، وشد أنس مع رجاله على السليك فقتلوه.

الكميت

ولد الكميت بن زيد أيام مقتل الحسين بن على - رضى الله عنهما - فرضع صغيرا من صدر الفجيعة الكبرى وتنفس من زفرات الملكومين فيها وأرقت مهده الصغير أنات الثكالى من شيعة الحسين بل ومن شيعة بنى هاشم.

طبع الكميت على حب بنى هاشم والتشيع لهم، وهو كشاعر كان عليه أن يعبر عن ذلك الحب ويصوره بأسلوبه، لكن أن تحب هاشميا فى عصر ثقلت عليه يد بنى أمية فهذا جهاد، وأن تجهر بهذا الحب فجهادُ أعظم، وأن تجهر به شعراً - مع ماللشعر من قوة فى التأثير على النفوس وسرعة فى الانتشار - فهذا هو الجهاد الأعظم.

ومن خلال ثقافة الكميت كفقيه ومعلم للصبيان، ومن جهة أخرى كرجل متشيع لبنى هاشم، وعلى مذهب الزيدية - وهم أتباع زيد بن على بن الحسين بن على وهم أكثر فرق الشيعة اعتدالاً فى تشيعهم لعلى وآل بيته - ومن خلال صلته الوثيقة بالفكر المعتزلى عن طريق صاحبه زيد بن على، وواصل بن عطاء رأس المعتزلة، من خلال ذلك كله استطاع الكميت أن يكون لنفسه رؤيته الخاصة للأحداث قديمها وحديثها، وأن يكوّن رأياً حراً لاتؤثر عليه المؤثرات الحكومية «الأموية» استطاع الكميت أن يمهد للشعر أرضاً جديدة تحت سماء التشيع، كما استطاع أ ن يمهد للشيعة أرضا جديدة تحت سماء الشعر، يمكنهم فى ظله أن يظهروا محبتهم لآل البيت، ويحتجوا لحق أئمتهم فى الخلافة، ويبرزوا الجوانب الدينية والإنسانية فى شخصية الأئمة، بل يمكنهم من خلاله أن يظهروا حزنهم وتفجعهم على الشهداء من أئمتهم، على الرغم من أن ذلك كان محظورا وإن لم يكن حظره معلنا.

ولقد سار على درب الكميت شعراء عرفوا بحبهم لآل البيت وخصوهم الولاء وأكثروا القول فيهم، منهم كثير عزة، والسيد الحميرى، وأيمن بن خزيم، وأبو الأسود الدؤلى، وهم قلة غير أن واحدهم كثير على الدولة الأموية وكفيل شطر بيت لأقلهم شهرة أن يغرس

الشوك فى مضجع أعتى خلفاء بنى أمية فلا يدرك النوم حتى يفتك بقائله.

كتب الكميت مجموعة من القصائد يمدح فيها بنى هاشم، ويهجو بنى أمية ويوازن بين عدل الأئمة وجور الخلفاء الأمويين، وعرفت هذه المجموعة من القصائد باسم «الهاشميات»، منها قوله:

نفى عن عينك الأرقُ الهجوعا	وهم يمترى [1] منها الدموعا
لفقدان الخضارم [2] من قريش	وخير الشافعين معاً شفيعا
لدى الرحمن يصدع بالمثانى[3]	وكان له أبو حسن قريعا
حطوطاً [4] من مسيرته ومولى	إلى مرضاة خالقه سريعا
وأصفاه النبى على اختبار	بما أعيا الرفوض له المذيعا
ويوم الدوح [5] دوخ غديرخُمّ [6]	أبان له الولاية لو أطيعا
ولكن الرجال تبايعوها	فلم أر مثلها خطراً مبيعا
فلم أبلغ بها لعنا ولكن	أساء بذاك أولهم صنيعا
فصار بذاك أقربهم لعدل	إلى جور وأحفظهم مضيعا
أضاعوا أمر قائدهم فضلوا	وأقومهم لدى الحدثان [7] ريعا

---

(١) يمترى: يحلب

(٢) الخضارم: السادة

(٣) المثانى: القرآن الكريم، والمراد يشق عصا الكفر بالقرآن

(٤) الحطوط: السريع

(٥) الدوح: الشجر، مفردها دوحة

(٦) غديرخم: موضع بين مكة والمدينة

(٧) الحدثان: الحادثة

تناسوا حقه وبغوا عليه بلا ترة وكان لهم قريعا

من خلال هذه الأبيات تلمح الكميت وقد استبد به الأرق والهم الذى قرح جفنيه من كثرة بكائه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَن بعده من آل البيت الكريم، ثم بعد ذلك يأخذ فى الاحتجاج لحق على كرم الله وجهه فى الخلافة، ويؤيد ذلك الحق بعرض خصال الإمام على فيصفه بأنه يسارع إلى إرضاء خالقه عز وجل، ثم يحتج بأن الرسول أوصى بخلافة على فى يوم عُرف بيوم غديرخم، ثم يعيب على الصحابة موقفهم حين سلبوا عليا حقه فى الولاية وتركوا أمر الرسول فصاروا مضيعين للحق [1].

وفى موضع آخر من الهاشميات يقول الكميت:

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا أرضى بشتم أبى بكر ولا عمرا

ولاأقول وإن لم يعطيا فَدَكا [2] بنت الرسول ولاميراثه كفرا

الله يعلم ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

إن الرسول ررسول الله قال لنا إن الولى على غير ماهجرا

فى موقف أوقف الله النبى به لم يعطه قبله من خلقه بشرا

هو الإمام إمام الحق نعرفه لا كاللذين استذلانا بما أئتمرا

يتكلم الكميت بحنجرة الشيعة الزيدية، ويحس بأحاسيسهم وينبض قلبهم جميعاً بحب آل البيت عامة وحب على خاصة، وهو فى هذه المُقطعة يصرح بهذا الحب، ولكنه مع حبه

---

(١) نلفت نظر القارىء إلى أننا نشرح وجهة نظر الكميت ولانتبناها

(٢) فدك. قرية بالحجاز

الشديد لعلى يرفض أن يتناول أميرى المؤمنين أبا بكر وعمر بالسب أو اللعن، فهو يعتقد بجواز إمامتهما - كما يقرر ذلك مذهب الشيعة الزيدية- مع وجود من يفضلهما وهو الأمام على كرم الله وجهه.

يشير الكميت إلى القرية التى أفاء الله بها على نبيه صلى الله عليه وسلم قرية فدك - والتى طالبت بها ابنته السيدة فاطمة بعد وفاته، فأبى أبو بكر عطاءها إياها وكذلك فعل من تبعه من الخلفاء، فالكميت يرى أنه على الرغم من ذلك لايصح رميهم بالكفر ويفوض الأمر فيهم إلى الله تعالى، ثم يؤكد الكميت على إمامة على ويحتج له بأن الرسول أوصى له بذلك صراحة.

وفى هاشمية أخرى يقول الكميت

طربت وماشوقاً إلى البيض أطرب	ولا لعباً منى وذو الشيب يلعبُ
ولم يلهنى دار ولا رسم[1] منزل	ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا السانحات[2] البارحات عشية	أمرَّ سليم القرن أم مر أعْضَبُ[3]
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى	وخير بنى حواء والخير يطلب
إلى النفر البيض[4] الذين بحبهم	إلى الله فيما نابنى أتقرب
بنى هاشم رهط النبى فإننى	بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

---

(١) رسم: الأثر اللاصق بالأرض من أطلال المنازل

(٢) السانحات مايمر من الطيرر ناحية اليمين، وكانت العرب تتفاءل به، والبارحات: مايمر إلى اليسار وكانت العرب تتشاءم منه

(٣) الأعضب: المكسور القرن

(٤) البيض: جمع أبيض وهو الشريف الحر

خفضت لهم منى جناحى مودة | إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا | محباً على أنى أذم وأقصب[1]
وأرمى وأرمى بالعداواة أهلها | وإنى لأوذى فيهم وأؤنب
ومالى إلا آل أحمد شيعة | ومالى إلا مذهب الحق مذهب
بخاتمكم غصبا تجوز أموركم | فلم أرَ غصباً مثله يتغصبُ
وجدنا لكم فى آل حاميم[2] آية | تأولها منا تقى ومعرب
وفى غيرها آيا وآيا تتابعت | لكم نصب فيها لذى الشك منصب
بحقكمُ أمست قريش تقودنا | وبالفذ[3] منها والرديفين[4] نركب
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا | وماورثتهم ذاك أم ولاأب
يرون لهم فضلاً على الناس واجباً | سفاهاً وحق الهاشميين أوجب
ولكن مواريث بن آمنة الذى | به دان شرقىُ لكم ومغربُ
يقولون لم يورث ولولا تراثه | لقد شركت فيه بكيل وأرحب[5]
وَعَكُ ولَخْمُ والسكون وحمير | وكندة والحيان: بكر وتغلب
وماكنت الأنصار فيها أذلةً | ولاغُيباً عنها إذا الناس غُيَّب

---

(١) أُقصب: أُعاب وأُشتم

(٢) آل حاميم: السور القرآنية المبدوءة بـ «حم» وهى غافر، فصلت، شورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف

(٣) الفذ: الفرد

(٤) الرديف: هو الذى يركب خلف الراكب

(٥) بكيل وأرحب والبيت التالى كله: أسماء قبائل عربية

هـم شهـدوا بـدراً وخيبر بعدهـا ويـوم حنـين والدمـاء تصـبب

وهم رئمـوها غـيـر ظئـر وأشـبلوا عليـهـا بأطراف الـقنـا وتحـدبوا

فـإن هـى لم تصلح لـقـوم سـواهـم فـإن ذوى الـقـربى أحـق وأقـرب

كأصحـاب القضايا والمهتمين بالمشكلات العليا لم يكن الكميت يطرب أو يشتـاق كما يشتـاق أترابه لجارية بيضاء يـلاعبها وتلاعـبه، ولم يكن كذلك من الشـعراء الذين يرون من الرسوم الدارسة موضـوعات تدور حولها حياتهم وبالتالى قـصائدهم، ولـم يكن كذلك من الشبـاب اللاهى العابث الذى لايـجد مايضـيع وقتـه فيه سـوى استطلاع الغـيب عن طريق العادات الجاهليـة الذميمة مثل زجر الطيـر، ولكنه - وهو الرجل المحب لآل البيت فى دولة عدوهم - لم يكن له هم سوى إرضائهم وتبنى الدفاع عن حقهم المغتصب فى الخلافة، فهم أهل الفـضائل والعـقول الراجـحة، وهم خـير الأبناء لخـير الأمـهات وهى السـيدة «فاطـمة الزهراء» رضى الله عنها وأرضاها، وهذه براعة اسـتهلال تحمد عليها قريحتـه الشعرية، فهو يشد السامع من أول القصيدة ويجذبه من خلال تجديـد لم تعهده القصيدة العربية التى عرف عمودها بالبدء بالوقوف علـى الأطلال، ثم ذكر الحبيبة النائية، ووصفهـا بما تيسر من صفات الشرف والرفعة ولابأس من التعرض لمفـاتنها فى بيت أو بيتين، ثم وصف الخيل أو الناقة ثم الخلاص من ذلك كله إلى الغرض الأسـاسى فى القصيدة من مدح أو فـخر أو غزل أو رثاء أو هجاء ثم فى ختام القصيدة تكون هناك حكمة أو مجموعة من الحكم يطلقها الشاعر.

الكميت إذن سبق العصـر العباسى إلى كـسر عمـود القصـيدة العربيـة، ألم يطلع علينا بقصائد مـختلفة تماما فى بنائها عن المعـتاد فى ذلك العصر؟! ولقد كان شـعره بما يحويه من إرهاصات التـجديد موضع إعجـاب من كبار شعـراء عصره، فـهاهو الفرزدق يستـمع إليه بإنصات شديد وهو يقول:

طربت وماشوقاً إلى البيت أطربُ

فقال له الفرزدق: فيم نطرب ياابن أخى؟ فقال:

ولالعباً منى وذو الشوق يلعبُ

قال الفرزدق: بلى يابن أخى، فالعب فإنك فى أوان اللعب، فقال:

ولم يلهنى دار ولارسم منزل ... ولم يتطربنى بنان مخضب

فقال الفرزدق: مايطربك يابن أخى؟ فقال:

ولا السانحات البارحات عشية ... أمر سليم القرن أم مر أعضب

فقال الفرزدق: أجل لاتتطير، فقال:

ولكن إلى أهل الفضائل والنهى ... وخير بنى حواء والخير يطلب

فقال الفرزدق: ومن هؤلاء؟ ويحك، فقال:

إلى النفر البيض الذين بحبهم ... إلى الله فيما نالنى أتقرب

قال الفرزدق: أرحنى، ويحك، من هولاء؟ فقال:

بنى هاشم رهط النبى فإننى ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

فقال له الفرزدق: يابن أخى، أذع ثم أذع، فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقى.

لم يكن الفرزدق لينصت ذلك الإنصات ويتلهف على الاستماع ذلك التلهف لشاعر صبى يلقى عليه أولى محاولاته، إلا إذا أدرك الفرزدق أن هناك شيئاً جديدا لم يسمعه من

غيره من الشعراء، ولم يكن ليطلق عليه «أشعر من مضى وأشعر من بقى» على سبيل المجاملة أو التشجيع، فلم تكن الساحة الأدبية وقتئذٍ تعرف تلك المجاملات البلهاء التى نراها اليوم على ألسنة المتناقدين موجهة للمتشاعرين، ولم يكن الفرزدق ليقول ذلك إلا تقديراً منه - وهو رجل ذو تاريخ شعرى طويل وحساسية نقدية نفاذة - لما يقول الكميت من شعر لم تسمع العرب مثله.

بعد هذه المقدمة يتعرض الكميت للأمويين مغتصبى الخلافة من الهاشميين أصحاب الحق فيها، ويقرر أنه اغتصاب لم يُرَ مثله فى تاريخ البشرية فقد أصبح الأمويون يجوزون أمورهم بخاتم الخلافة، وهو خاتم الرسول صلى الله عليه وسلم، وبنو هاشم أحق به منهم، وقد عبر الكميت عن الأمويين بضمير الغائبين «هم» ولم يصرح باسم أحد منهم، وليس هذا جبناً منه أو احتراسا أو وسيلة للهروب من المساءلة، فالقصيدة كلها صفعة على وجه الأمويين، وإنما استخدام الضمير هنا جاء للتعميم، فكأنما المقصود بالذم ليس الأموين وحدهم وإنما كل من يمكن أن يكون فى مكانهم من اغتصاب الخلافة، بمعنى أى «هم» أو أى قوم كانوا، وبذلك يخرج الكميت نفسه من دائرة العداء الشخصى لبنى أمية، فهو لايقصدهم كقوم وإنما يقصدهم لموضعهم الذى وضعوا أنفسهم فيه من اغتصاب الخلافة، وكأن القضية قد أصبحت عند الكميت ذات طرفين، طرفها الأول بنو هاشم وطرفها الثانى «هم».

ثم يلجأ الكميت إل كتاب الله عز وجل آوياً إلى ركنه الشديد علّه يجد فى آياته مايؤازره ويدعمه، فيرى فى بعض سوره بعض آيات تثبت حق أهل البيت فى الخلافة، منها قوله تعالى فى سورة الشورى «ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لاأسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور

شكور»[1]، ثم يتهم بنى أمية بأن لهم غاية فى تأويلها على غير وجهها، ولكن هذا التأويل سوف يتعبهم الوصول إليه.

ثم يأسى الكميت لهذه الحالة التى وصلت إليها الدولة الإسلامية، فقد أصبح الأمويون يرثون الخلافة عن آبائهم، فى الوقت الذى رفضوا وراثتها لبنى هاشم من النبى واحتجوا بأن الأنبياء لايورثون، ويقرع الكميت حجتهم هذه بأن النبى لو لم يكن النبى يورث لكانت الخلافة حقاً عاماً لجميع المسلمين وليست قاصرة على قريش فضلاً عن بنى أمية، بل كان للأنصار الحظ الأكبر فيها، فهم الذين آووا ونصروا نبى الأمة، بعد أن تخلت عنه بل وحاربته قريش، وقد شهد الأنصار غزوة بدر وخيبر وحنين ودفعوا دماءهم لنصرة الإسلام، وقد قبلوا الإسلام ورعوه رعاية الأم لأولادها الصغار.

ثم يخلص الكميت إلى أن الخلافة تورث، بدليل وراثة بنى أمية لها عن طريق آبائهم، ثم يرى أنها من حق آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم فهم أقرب الأقربين له وأحق الناس بوراثته، وينتج حتماً عن ذلك أن بنى أمية مغتصبوا هذه الخلافة وليس لهم حق فيها.

وفى إحدى الهاشميات يقول الكميت:

بل هواى الذى أجن وأبدى	لبنى هاشم فروع الأنام
للقريبين من ندىً والبعيد يـ	ـن من الجور فى عُرَى الأحكام
والمصيبين باب ماأخطأ النا	س ومرسى قواعد الإسلام

(١) سورة الشورى آية ٢٣

والغيوث الذين إن أمحل [١] النا س فمأوى حواضن الأيتام

راجحي الوزن كاملي العدل فى السير ة طبين [٢] بالأمور العظام

غالبين هاشميين فى العلـ ـم ربّوا [٣] من عطية العلام

وهم الآخذون من ثقة الأمـ ـر بتقواهم عُرًى لا انفصام

ساسة لاكمن يرى رعية النا س سواءً أو رعية الأنعام

لا كعبد المليك أو كوليد أو سليمان بعد أو كهشام

رأيه فيهم كرأى ذوى الثلة[٤] فى الثائجات[٥] جنح الظلام

جز ذى الصوف وانتقاء لذى الـ مخة[٦] لغفا ودعدعا[٧] بالبهام[٨]

وهم الأوفون بالناس فى الرأ فة والأحلمون فى الأحلام

أخذوا القصد واستقاموا عليه حين مالت زوامل [٩] الآثام

والوصى [١٠] الذى أمال به عرش أمة لا انهدام

قتلوا يوم ذاك إذ قتلوه حكماً لاكغابر الحكام

الإمام الزكي والفارس المعـ ـلم تحت العجاج غير الكهام

راعيا كان مسجحا ففقدنا ه وفقد المسيم [١١] هلك السوام

---

(١) أمحل الناس: أصابهم الجدب (٢) طبين: حاذقين (٣) ربوا: زادوا (٤) الثلة: جماعة الغنم

(٥) الثائجات: جمع ثائجة وهى الصائحة من الضأن (٦) ذو المخة: السمين (٧) دعدعا: صوت تنادى به الغنم

(٨) البهام: أولاد الضأن والمغز (٩) الزوامل: جمع زاملة وهى الناقة التى يُحمل عليها المتاع

(١٠) الوصى: يريد علياً بن أبى طالب (١١) المسيم: الراعى الذى يضع علامة على الماشية

الكميت فى هذه القصيدة يحاول أن يلفت النظر إلى الجانب الإنسانى للهاشميين بعد أن أصبح كمالهم الدينى أمراً مفروغاً منه، أليسوا آل بيت النبى وهم أهل التقوى والورع، الكميت إذن يريد الوصول ببنى هاشم إلى درجة الكمال الإنسانى أو المثالية الإنسانية، ديناً وخلقاً، فيصفهم بالكرم، فهم كمطر السماء الذى ينقذ من أشرفوا على الهلاك وقد أصابهم الجدب، فيكونون ملاذاً للأمهات وقد حملن أيتامهن ولمن لاعائل لهم من العَجَزة والمحتاجين، فيجدون عندهم الخير الكثير.

ثم يصفهم الكميت بالعدل فى الفصل بين الناس، وبأنهم حاذقون فى مواجهة المشكلات، ويعرفون لكل أمر خطره، ولكل نازلة المنجاة منها، فهم أهل رجاحة العقل والفطنة.

ثم يصفهم بالعلم الربانى المتزايد، وهذا اعتقاد الشيعة فى أن العلم يوهب تماماً كما توهب النبوة، وليس أولى بهذا العلم والفقه من آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو صاحب الوحى.

ثم يقارن الكميت بين سياسة الهاشميين وسياسة بنى أمية، وفى هذه المقارنة يقرر الكميت عدل الهاشميين، «بنفى الجور والظلم عنهم، بينما يصم بنى أمية بأنهم يملكون ويدخرون، وكأن الرعية غنم لهم، يجزون صوفها ويشربون ألبانها، ويأكلون لحومها، وفى الوقت نفسه لايرحمون حتى صغارها من قهرهم، وزجرهم، فهم الظلمة الغاشمون، أما بنو هاشم فهم يبتغون الرحمة والعدل بين الناس، وقد استقاموا على جادة الدين، بينما حاد بنو أمية عنه، وهم مثقلون بالآثام»(١).

(١) اتجاهات الشعر فى العصر الأموى لأستاذنا الدكتور صلاح الدين الهادى ص١١٧

«ولاينسى الكميت أن يرثى برثائه الشجاعة، والطهر، ونبع الخير، وأن يندد بأعدائه، الذين أعانون على قتله، بتدبير مؤامرة اغتياله فيرميهم بالجرأة على الدين، لأن فى قتل الإمام على هدم لعرش الأمة الإسلامية، ويصمهم بالظلم لفتكهم بالراعى العادل، الذى تهلك بهلاكه الرعية» [1].

بعد هذه الوقفة السريعة مع بعض هاشميات الكميت، يبقى سؤال هام، هل كان الكميت شاعراً سياسياً أم كان شاعراً دينياً؟

وبتعبير آخر، هل كانت الهاشميات شعراً سياسياً أم شعراً دينياً؟ ربما أجمع بعض النقاد ودارسى أدب ذلك العصر على أنه شعر سياسى، لمطالبة هؤلاء الشعراء بالخلافة لشيعتهم وهى منصب سياسى، لكننا نرى أن ننظر أولاً إلى دوافع المطالبة، أهى سياسية أم دينية؟

بمعنى هل كان الكميت ينتمى للحزب الشيعى ويناصره لأنه حزب من أقوى الأحزاب الموجودة، وربما آل إليه الحكم فى وقت ما، فيكون الكميت مسارعاً إلى النصرة والمؤازرة، ويكون له بذلك قدره فى الدولة الجديدة إن قامت؟

لو كان الأمركذلك فلماذا لم يلجأ الكميت إلى بنى أمية فيمدحهم، ويؤازرهم ويزود عنهم أعداءهم، وهم أصحاب السلطة الحاكمة الموجودة بالقوة والفعل؟

يجيب الكميت نفسه على هذا السؤال حينما قدم له أبو جعفر محمد بن على بن الحسين ألف دينار وكسوة جائزة على أشعاره فى آل البيت، فقال الكيمت: « والله ماأحببتكم للدنيا، ولو أردت الدنيا لأتيت من هى فى يديه (يعنى بنى أمية أصحاب السلطان والمال)، ولكننى

---

(١) السابق نفسه ص ١٠٨

أحببتكم للآخرة، وأما الثياب التى أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركتها، وأما المال فلا أقبله، فرده، وقبل الثياب»[1].

وقوله أيضاً لعبد الله بن الحسن بن على، وقد أجازه على شعره فى آل البيت بضيعة قيمتها أربعة آلاف دينار، وسلمه صكها: «بأبى أنت وأمى، إنى كنت أقول الشعر فى غيركم أريد بذلك المال والدنيا، ولا والله ماقلت فيكم إلا لله، وماكنت لآخذ على شىء جعلته لله مالاً ولاثمناً»[2].

القضية إذن قضية دين، وليست سياسة، فالخلافة خلافة النبى صلى الله عليه وسلم، وهو صاحب لواء الدين، وليست خلافة ملك أو سلطان، تؤول إلى من يحسن الوصول إليها عن أى طريق، أياً كانت هويته.

كذلك لم يكن فصل الدين عن الدولة أمراً وارداً فى ذلك الحين، وإنما ذلك الفصل من مبتدعات عصرنا الحالى، وكان الواجب على النقاد أن يضعوا المصطلحات بدقة، فإن لم تتيسر لهم تلك الدقة، فليسموا القضايا بأسمائها القديمة، ولاحرج فى ذلك.

شعر الكميت إذن شعر دينى، وإذا كان منهجه يشبه منهج الشعر السياسى الذى ظهر فى العصور التالية له، فتشابه المناهج لايعنى اتفاق الهوية.

هو شعر دينى جعل السياسة وسيلة من وسائل الأداء، ونسبة الأمور إلى غاياتها لاشك أفضل من نسبتها إلى وسائلها.

---

(١) الأغانى جـ١٨ ص ٦٢٩٢ ط. دار الشعب

(٢) مروج الذهب ج٢ ص١٩٥ نقلاً عن اتجاهات الشعر فى العصر الأموى للدكتور صلاح الدين الهادى ص ١٢٧

قُدر للهاشميات أن تكتب، وقدر لهـا أن تصل إلى قصر بنى أمية، ولكن كيف وصلت؟ مما لاشك فيه أن الكميت كان حريصاً على ألا تصل هذه القصائد إلى القصر، فهى لم تكتب للقصر، وإنما كتبت للعامة الذين أغرقهم بنو أمية فى الظلم والجور.

فى وصول الهاشميات إلى قصر بنى أمية رواية يرويها أبو الفرج الأصفهانى، فى كتابه الأغانى، رأينا أن نوردها بنصها [1]:

ان حكيم بن عياش الأعور الكلبى [2] ولعاً بهجاء مضر، فكانت شعراء مضر تهجوه ويجيبهم، وكان الكميت يقول: هو والله أشعر منكم، قالوا: فأجب الرجل، قال: إن خالد بن عبد الله القسرى [3] محسن إلى فلا أقدر أن أرد عليه، قالوا: فاسمع بأذنيك مايقول فى بنات عمك وبنات خالك، وأنشدوه ذلك، فحمى الكميت لعشيرته، فقال قصيدته المذهبة (ألا حييت عنا يامدينا) فأفحش فيها، وبلغ خالداً خبرها، فقال: لا أبالى، مالم يجر لعشيرتى ذكر، فأنشدوه قوله:

ومن عجب على لعمر أم	غذتك وغيرها تباً يمينا [4]
تجاوزت المياه بلا دليل	ولاعلم تعسف مخطئينا
فإنك والتحول من معد	كهيلة قبلنا والحالبينا
تخطت خيرهم حلبا ومسا	إلى المولى المغادر هاربينا
كعنز السوء تنطح عالفيها	وترضيها عصى الذابحينا

---

(١) الأغانى جـ ١٨ صـ ٦٢٧٤

(٢) كان شاعراً منقطعاً إلى بنى أمية فى دمشق

(٣) خالد بن عبد الله القسرى: كان أميراً على العراق

(٤) فى البيت تعريض بأم خالد، وكانت نصرانية

فبلغ ذلك خالداً، فقال: فعلها والله، لأقتلنه، ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن، وتخيرهن نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب، فروّاهن الهاشميات، ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك، فاشتراهن جميعاً، فلما أنس بهن استنطقهن، فرأى فصاحة، وأدباً، فاستقرأهن القرآن، فقرأن، واستنشدهن الشعر، فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات، فقال: ويلكن! من قائل هذا الشعر؟ قلن: الكميت بن زيد الأسدى، قال: وفى أى بلد هو؟ قلن: فى العراق، ثم بالكوفة، فكتب إلى خالد وهو عامله على العراق: ابعث إلىّ برأس الكميت بن زيد، فبعث خالد إلى الكميت فى الليل، فأخذه وأودعه السجن، ولما كان من الغد أقرأ من حضر من مضر كتاب هشام، واعتذر إليهم من قتله، وآذنهم فى إنفاذ الأمر فيه فى غد، وقال لأبان بن الوليد البجلى وكان صديقاً للكميت: أنظر ماوردنى فى صديقك، عز على والله به، ثم قام إبان، وكان عاملاً على واسط، فبعث إلى الكميت فأنذره، وكتب إليه: قد بلغنى على ماحدث إليه، وهو القتل إلا أن يدفع الله عز وجل، وأرى لك أن تبعث إلى حُبَّى- يعنى زوجة الكميت، وهى بنت نكيف بن عبد الواحد، وهي ممن يتشيع أيضاً- فإذا دخلت إليك تنقبت بنقابها ولبست ثيابها وخرجت، فإنى أرجو ألا يؤبه لك، فأرسل الكميت إلى أبى وضاح حبيب بن بديل، وإلى فتيان من بنى عمه، من مالك بن سعيد، فدخل عليه حبيب فأخبره الخبر، وشاوره فيه، فسدد رأيه، ثم بعث لى حُبى، امرأته فقص عليها القصة، وقال لها: أى ابنة عم، إن الوالى لايقدم عليك ولايُسلمك قومك، ولو خفته عليك لما عرضتك له.

فألبسته ثيابها وإزارها وخمّرته[1]، وقالت له: أقبل وأدبر، ففعل، فقالت: ماأنكر منك شيئاً إلا يبساً فى كتفك فاخرج على اسم الله، وأخرجت معه جارية لها فخرج، وعلى باب

(١) خمّرته: آلبسته الخمار

السجن أبو الوضـاح، ومعه فـتيان من بنى أسـد، فلم يؤبه له، ومشى والفتـيان بين يديه، إلى سكة شبيب بناحيةة الكناسـة، فمر بمجلس من مجـالس بن تميم فقال بعـضهم: رجل ورب الكعبـة، وأمر غلامـه فاتبعـه، فصاح به أبو الوضـاح: ياكذا وكذا لاأراك تـتبع هذه المرأة منذ اليوم، وأومأ إليه بنعله فولى العبد مدبرا.

وأدخله أبو الوضاح منزله، ولما طال على السجان الأمـر نادى الكميت فلم يجبه، فدخل ليعرف خبره، فصاحت به المرأة: وراءك لا أم لك! فشق ثوبه وخرج صارخاً إلى باب خالد، فأخـبره الخبـر، فأحضـر حُبى فقـال لها: ياعدوة الله، احـتلت على أميـر المؤمنين وأخرجت عدوه، لأمثلن بك، ولأصنعن ولأفعلن، فاجتمعـت بنو أسد إليه وقالوا: ماسبيلك على امرأة منا خدعت، فخافهم فخلى سبيلها.

وسقط غراب على حائط قنعب، فقـال الكميت لأبى الوضاح: إنى لمأخوذ، وإن حائطك لساقط، فقال: سبحان الله! هذا مـالايكون إن شاء الله، فقال له: لابد من أن تحولنى، فخرج به إلى بنى علقمـة، وكانوا يتشيـعو، فأقام فيـهم، ولـم يصبح حتى سقط الحـائط الذى سقط عليه الغراب.

فأتى مسلمة بن عبد الملك فاستـجار به، فقال: إنى أخشى ألا ينفعك جوارى هذا، ولكن استـجر بابنه مسلمـة بن هشام، فقال: كن أنت الـسفير بين وبينه، فـفعل مسلمـة وقال لابن أخيه: قد أتيتك بشرف الدهر واعتقاد الصنيعة لمضر، وأخبره الخبر، فأجاره مسلمة بن هشام.

وبلغ ذلك هشاما فدعا به، ثم قال له: أتجير على أمير المؤمنين بغير أمره، فقال: كلا لكنى انتظرت سكو غضبه، قـال: أحضرنيه الساعة، فإنه لاجوار لك، فقـال مسلمة للكميت: ياأبا المستـهل، إن أمير المؤمنـين أمرنى بإحضـارك، فقال: أتسلمنى يـاأبا شاكر، قـال: كلا ولكنى

أحتال لك، ثـم قال له: إن معاوية بن هشـام مات قريباً، وقـد جزع عليه جزعـاً شديداً، فإذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك في الرواق، فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بثيـابك، ويقولوا: هذا استجار بقبر أبينا، ونحن أحق من أجاره.

فأصبح هشام على عادته متطلعاً من قصره إلى القبر، فقال: ماهذا؟ فقالوا: لعله مستجير بالقبر، فقال: يجـار من كان إلا الكميت، فإنه لاجوار له، فقيل: إنه الكمـيت، فقال: يحضر أعنف إحضار، فلـما دعي به ربط الصبيان ثيـابهم به، فلما نظر هشام إليهـم اغرورقت عيناه واسـتعـبر، وهم يقـولون: ياأمير المؤمنين، اسـتجـار بقبـر أبينا وقـد مات، ومـات حظه من الدنيا،فاجعله هبة لنا، ولاتفضحنا فيمن استجار به، فبكى هشام حتى انتحب.

ثم أقبل على الكميت فقال له: ياكميت، أنت القائل:

وإلا فـقـولوا غـيـرها تتـعـرفـوا نواصـيـهـا تردى بنا وهي شُزَّبُ[1]

لا والله، ولا أتان من أتن الحجـاز وحشية، فـحمد الكميت الـله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قـال: أما بعد فإني كنت أتهـدى في غمرة وأعوم في بحر غـواية، أخنى على خطلها واستفزني وهلهـا، فتحيرت في الضلالة، وتسكعت في الجهالة، مـهرعاً عن الحق، جائراً عن القصد، أقول الباطل ضلالاً، وأفوه بالبهتـان وبالاً، وهذا مقام العائذ مبصر الهدى، ورافض العمى، فاغسل عني ياأميـر المؤمنين الحوبة بالتوبة، واصفح عني الذلة واعف عن الجَرمة، ثم

(١)شرب: ضوامر

قال:

كم قـــال قــائلكم لعــاً[1] لك عند عــثــرته لعـــاثر

وغــفـرتــم لــذوى الذنــو ب مــن الأكــابر والأصـــاغــر

أبنـــى أمـــيـــة إنكـــم أهــل الوســائل والأوامـــر

ثقـتـى لكـــل ملمــــة وعشـــيرتـــى دون العشـــائر

أنتـــم مـــعـــادن للخــلا فـــة كــابراً من بعــد كــابر

بالتسـعـــة المتـــابعيـــ ـن خلائـفاً وبخير عـاشر[2]

وإلى القــيـــامـــة لا نـــزا ل لشــافع مـنــك وواتـــر

ثم قطع الإنشاد وعاد إلى خطبته، فقال: إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته ومناط المنتجعين بحبله، من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين فضلاً عن استشاطه غضبه بجهل الجاهلين، فقال له: ويلك ياكميت، من زين لك الغواية ودلاك فى العماية؟ قال: الذى أخرج أبانا من الجنة، وأنساه العهد فلم يجد له عزما، فقال: إيه أنت القائل:

فيـا موقـداً ناراً لغيـرك ضوؤها ويا حـاطباً فى غير حبلك تحطب

فقال: بل أنا القائل:

إلـــى آل بيت أبـــى مـــالك مناخ هـو الأرحـــب الأســـهل

---

(١) لعاً: كلمة يدعى بها للعاثر

(٢) التسعة هم معاوية بن أبى سفيان ويزيد الأول ومعاوية الثانى ومروان الأول، وعبد الملك بن مروان، والوليد الأول، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد الثانى، والعاشر هو هشام بن عبد الملك

تمت بأرحامنا الداخلا ... ت من حيث لاينكر المدخل

ببرة والنضر والمالكيـ ... ـن رهط هم الأنبل الأنبل

ويابنى خزيمة بدر السما ... ء والشمس مفتاح ماتأمل

وجدنا قريشاً قريش البطاح ... على مابنى الأول الأول

بهم صلح الناس بعد الفساد ... وحيص[1] من الفتق مارُعبِلوا[2]

قال له: وأنت القائل:

لا كعبد المليك أو كوليد ... أو سليمان بعد أو كهشام

من يمت لايمت فقيداً ومن يحـ ... ـيى فلا ذو إلّ[3] ولاذو ذمام

ويلك ياكميت أجعلتنا ممن لايرقب فى مؤمن إلا ولاذمة، فقال: بل أنا القائل ياأمير المؤمنين:

فالآن صرت إلى أميـ ... ـة والأمور إلى المصاير

والآن صرت بها المصيـ ... ـب كمهتدٍ بالأمس حائر

ياابن العقائل للعقا ... ئل والجحاجحة الأخاير

من عبد شمس والأكا ... بر من أمية فالأكابر

---

(١) حيصى: خيط

(٢) رعبلوا: مزقوا

(٣) إلّ: عهد

إن الخـــلافـــــــــــة والإلا ف برغم ذى حـــســد وواغـــر

دلفـــاً مـــن الشـــرف التليـــ ـــد إليك بالرفـــد الموافـــر

فـــحللـــت مـــعـــتلج البطـــا ح وحل غـــيـــرك بالظـــواهـــر

فقال له: إيه! فأنت القائل:

فـــقل لبنى أمـيـــة حـيث حلـــوا وإن خـــفت المهنـد والقطيـعـــا[1]

أجـاع اللـه مـن أشـبـعـتـمـوه وأشـبع من بجـوركمُ أضـيـعـا

بمرضىٍّ الســيـاســة هاشـمى يـكون حـيـاً لأمـتـه ربيـعـا

فقال: لاتثريب ياأمير المؤمنين، إن رأيت أن تمحو عنى قولى الكاذب، قال بماذا؟ قال بقولى الصادق:

أورثتـه الحـصـان أم هشـــام حـسـباً ثاقـباً ووجـهاً نـضيـراً

وتعـاطـى بــه ابـن عـائشـة البد ر فـأمـسى لـه رقـيـبـاً نظيـراً

وكـــســاه أبـو الخـــلائف مـــروا ن ســـناً المكـــارم المأثـــورا

لـــم تجـــهم لـه البطـــاح ولـكـن وجـدتـهـا له مـعـاراً ودوداً

وكان هشام متكئاً فاستوى جالساً وقال: هكذا فليكن الشعر، يقولها لسالم بن عبد الله

---

(١) القطيع: السوط المنقطع طرفه

بن عمر، وكان إلى جانبه، ثم قال: قد رضيت عنك ياكميت، فقبل يده، وقال: ياأمير المؤمنين، إن رأيت أن تزيد فى تشريفى ولاتجعل لخالد على إمارة، قال: قد فعلت، فكتب له بذلك، وأمر له بأربعين ألف درهم، وثلاثين ثوباً هشامية، وكتب إلى خالد أن يخلى سبيل امرأته، ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً ففعل ذلك».

قدر للكميت أن ينجو هذه المرة، ولعله قال ماقال مدحاً فى بنى أمية وهو ينظر إلى قوله تعالى «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»[1].

ولسنا فى حاجة إلى الدفاع عن الكميت وإلباس مدائحه لبنى أمية ثوب الهجاء، فقد استطاع الكميت بحدة ذكائه وسرعة بديهته أن يحيك لها ذلك الثوب، فكفانا بذلك تكلفة والتماسه خلف حجب الظن.

ولننظر معاً إلى قوله:

وإلى القيامة لاتزال   لشافع منكم وواتر[2]

فهذا البيت وإن كان يرضى هشاماً فإنه فى الوقت نفسه يؤلب عليه الأحزاب المعادية المتربصة له، والتى تنتظر موت كل خليفة أموى لتطالب بالخلافة لشيعتها، البيت إذن صرخة يطلقها الكميت من خلف قهقهة هشام طرباً له.

ولننظر إلى السخرية اللاذعة التى قصد إليها الكميت من خلال بيت رقيق فيقول:

---

(١) سورة النحل آية ١٠

(٢) الضمير المستتر يعود على الخلافة

بهـــم صلـح الناس بعـد الفســـاد وحيص مـــن الفـتق مـارعـبلوا

فهل ساد الفساد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين فجاءت بنو أمية لتصلح هذا الفساد، وتجمع شمل الأمة بعد تفرقها وهم أول من فرقها وقطع سبل جمعها؟!

ومن النقاد المعاصرين للكميت من رأى في قوله:

اليـــوم صـــرت إلى أمـــيـــة والأمـــور إلى المصـــائـــر

أنه إنما أراد: اليوم صررت إلي بني أمية والأمور إلى مصايرها أي بني هاشم[1]. وهذا التأويل من عصر الشاعر يدل دلالة قاطعة على أنهم كانوا يفهمون شاعرهم حق الفهم ولايشكون في نزاهته ويقدرون محنته التي استنطقته بهذا الشعر.

كما أننا نلاحظ أن الكميت لم يصف دين بني أمية ولم يتعرض له على الإطلاق، فلم يصفهم بالتقوى، والورع، إنما اكتفى بوصفهم بعلو النسب ورفعة الحسب، ونضارة الوجوه والكرم، وذلك ماكان يمدح به عرب الجاهلية.

ليس غريباً إذن أن يستمر الكميت على تشيعه لآخر لحظة في حياته.

خرجت الجعفرية[2] على خالد بن عبد الله القسري، وهو يخطب على المنبر، وهو لايعلم بهم، فخرجوا في البيانيين[3] ينادون: لبيك جعفر! لبيك جعفر! وعرف خالد

(١) أنظر الأغاني جـ١٨ صـ ٦٢٨٥

(٢) الجعفرية: القائلون بإمامة جعفر بعد أبيه محمد بن علي الباقر

(٣) البيانيين: نسبة إلى بيان بن سمعان التميمي، وهم فرقة من الشيعة

خبرهم، وهو يخطب على المنبر، فدهش فلم يعلم مايقول فزعاً، فقال: أطعمونى ماء، ثم خرج الناس إليهم فأخذوا، فجعل يجىء بهم إلى المسجد، ويؤخذ طن قصب فيطلى بالنفط، ويقال للرجل احتضنه، ويضرب حتى يفعل، ثم يحرق، فحرقهم جميعاً.

فلما قدم يوسف بن عمر دخل عليه الكميت، وقد مدحه بعد قتله خالد بن عبد الله القسرى، فأنشده قوله فيه:

خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن ... كمن حصنه فيه الرتاج المضبب[1]

وماخالد يستطعم الماء فاغراً ... بعدلك والداعى إلى الموت ينعب

وكان الجند قياماً على رأس يوسف بن عمر، وهم يمانية، فتعصبوا لخالد، فوضعوا ذباب سيوفهم فى بطن الكميت فوجؤوه بها وقالوا: أتنشد الأمير ولم تستأمره، فلم يزل ينزف حتى مات[2].

ومات الكميت شاعر آل البيت، لكن هاشمياته بقيت مشهرة فى وجه سيرة بنى أمية، وقد ابتلع التاريخ بني أمية، بينما بقيت هاشميات الكميت صورة نابضة بحياة أمة ثائرة، وبتاريخ مليء بصراعات، يؤكد دائماً أن البقاء للموقف، البقاء للكلمة.

---

(١) الرتاج المضبب: أى الباب العظيم المغلق بالضبة

(٢) الأغانى جـ١٨ صـ٦٢٨٧

المتنبى

أصبحت الكتابة عن المتنبى من أشد الموضوعات صعوبة بالنسبة للمتخصصين فى دراسة الأدب، فضلاً عن غيرهم، ماذلك إلا لازدحام المكتبة العربية والاستشراقية بأعداد لاحصر لها من الكتب التى تناولت الرجل، بدءاً من عصره شخصياً حتى لحظة كتابة هذه السطور.

والواقع أنه لم يلحظ شاعر عربى أو غير عربى، جاهلى أو إسلامى أو أموى أو عباسى أو عثمانى أو من العصر الحديث، بمثل ماحظى به المتنبى من دراسات شملت حياته بكل دقائقها وشعره بكل حركاته وسكناته.

ودراسة حياته من خلال الكتب التى تصوررها أخباراً وأحداثاً، لايقدم جديداً إلا اختلاف لغة الكاتب عن غيره من الكتاب، أما دراستها من خلال شعره الذى لاتكاد تنتهى جوانب الإبهار فيه، والذى تتسع مدلولات ألفاظه لتحمل على متنها الكثير من المعانى، والذى تحتفظ الصورة فيه بخروجها على سنة التطور التى تجعل من الحديث قديماً ومن القديم مجهولاً، فتظل هى صورة اليوم التى نرى فى خطوطها عروبة مبدعها الذى لم يكن يكتب لعرب يعيشون عصر الدويلات وإنما كان يكتب للنفس العربية والإحساس العربى والنبض العربى الذى لايتغير بتغير ملامح الخرائط ولايهتز مع هزات التاريخ العنيفة.

إن دراسة حياته من خلال شعره فرصة كبرى للمكتبة الإنسانية- الخارجة عن الحدود الإقليمية الجنسية واللغوية - لتحوى إلى جانب شعره تصورات النقاد والأدباء عن حياة الرجل الذى أبدع هذا الشعر الذى لم يستطع أكثر من ألف خريف أن يسقطوا من دوحته الخالدة ورقة واحدة.

ومن خلال قصيدته الميمية التى قالها معاتباً سيف الدولة، سوف نتعرف على بعض

تفاصيل حياته وشخصيته وشعره، يقول:

وا حــر قلبــاه ممــــن قلبــه شبــم ... ومن بجــســمى وحــالى عنده ســقم[1]

مالى أكـتم حباً قـد بــــرى جسدى ... وتدعــى حــب سيف الدولــة الأمــم

إن كــان يجـمـعـنا حبٌ لغــرته ... فليــت أنـا بقـدر الحـب نقـتـسـم[2]

بـدأ المتنبى قـصيدته بإطـلاق زفــرة حارة تدل على شدة امـتلاء قلبـه بالحب الذى تحول دفؤه إلى نار مستعرة أمام محـبوب بارد القلب لخلوه من الحب وإعراضه عن عاشقه، ثم هو - ككل العشاق حين يقـابل حبهم بلا مبالاة - سـقيم الجسم من كثرة السـهر وطول الليالى التى يبيتهـا يفكر فى سبب انصراف حبيبه عنه، وفى سبـيل يسلكه حتى يصل من خلاله إلى مرضاة هذا الحبيب.

كل بقدر حبه، ومن خـلال قوله «ليت» التى تفيد التمنى ندرك مدى ثقتـه من حبه لسيف الدولة ومدى ثقتـه من ادعاء هؤلاء الناس الحب، لذلك فهو يتمنى هذه القسـمة العادلة التى سوف يفوز فيها بالنصيب الأكبر إن لم يكن بالحب كله.

عرفنـا من الأبيات أن المتنبى يمدح رجـلاً يسمى «سـيف الدولة» فمن هو سـيف الدولة؟ وماعلاقـة الشاعر به؟ (كان سيف الدولة أمـير حلب، وله من العمر إذ ذاك خـمسة وثلاثون عامـاً، نموذجاً دقيـقاً لأمير من «ألف ليلة وليلة»، وسيـما، زهواً، تلتـقى فيه كل خـصائص الشيخ الـبدوى، الطيب منهـا والردىء، طموحاً، مـتقلب الأطوار، تتـأرجح شخـصيـته بين

---

(١) واحر قلبه: يتوجع من شدة حرارة قلبه من الحب، شيم: بارد ، سقم: مرض

(٢) غرته: طلعته

القسوة والشهامة، مخلصاً، وفياً لرفاقه، شهوانياً، كريماً وأديباً، يزخر بلاطه بالعلماء والشعراء،.................. ذلك هو الرجل الذى استسلم له المتنبى عن حب وإعجاب لقيا صدى وقوبلا بترحاب، وخلال أعوام تسعة رافق الشاعر بلاط سيف الدولة فى أنطاكية والرقة، وميافارقين، وحلب، ورافقه فى الحرب والمباهج فى الأفراح والأحزان، فى الصيد والقنص.

وهناك ازداد شهرة ونما ثراء، وهناك أيضاً أنشد أروع مدائحه التى عرفت بـ «السيفيات» نسبة إلى سيفة الدولة[1]، منها القصيدة التى نحن فى رحابها والتى يمدحه فيها بقوله:

قد زرته وسيوف الهند مغمدة	وقد نظرت إليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهمُ	وكان أحسن مافى الأحسن الشيم[2]
فوت العدو الذى يممته ظفر	فى طيه أسف فى طيه نعم[3]
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت	لك المهابة مالا تصنع البهم[4]
ألزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها	أن لايواريهم أرض ولاعلم[5]
أكلما رمت جيشاً فانثنى هرباً	تصرفت بك فى آثاره الهمم[6]
عليك هزمهمُ فى كل معترك	وماعليك بهم عار إذا انهزموا
أما ترى ظفراً حلواً سوى الظفر	تصافحت فيه بيض الهند واللمم[7]

(١) «مع شعراء الأندلس والمتنبى» إميليو غرسيه غومث تعريب الدكتور الطاهر أحمد مكى ط دار المعارف ص٢٢

(٢) الشيم: الأخلاق

(٣) فوت العدو: تركه، تيممته: قصدته، ظفر: نصر

(٤) البهم: الجيوش

(٥) يواريهم: يسترهم ، علم: جبل

(٦) رمت: طلبت ، انثنى: انسحب

(٧) بيض الهند: سيوف تصنع فى الهند، اللمم: شعر خلف الأذن

وفى هذه الأبيات يقدم المتنبى تعليلاً لحبه لسيف الدولة، فقد عرفه فى أوقات السلم حيث كانت السيوف هادئة فى أغمادها، وعرفه فى حالة الحرب حيث كانت السيوف من كثرة إصابتها أجسام جنود الأعداد تبدو وكأنها مصقولة بالدم، فكان فى كلا الحالين أحسن خلق الله وكانت أخلاقه أحسن مافيه.

ونلاحظ شدة الحساسية البلاغية لدى المتنبى، حيث اختار لوقت السلم قوله «زرت» واختار لوقت الحرب قوله «نظرت»، ذلك لأن أوقات السلم تسمح بالزيارة والمجاملة والمسامرة، بينما فى وقت الحب لايرُى إلا الكر والفر ولايُسمع إلا هدير السيوف، فلا تسمح تلك الحالة إلا بالنظرة السريعة.

ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن واقعة بين سيف الدولة والروم، فر فيها جند الروم ولم يدركهم سيف الدولة، فيحاول المتنبى إقناعه بأن عدم إدراكه لهم يعتبر نصراً، وإن كان يأسف لذلك فإن فى ذلك خير كثير حيث كسب المعركة بفرارهم دون أن يخسر شيئاً من جند أو سلاح، ومهما كانت نتيجة الحرب، فلا يمكن أن يحدث انتصار، أى انتصار، دون خسائر، ومن أجل المزيد من إرضاء الأمير، يعلل له الأمر، فشدة خوف الروم منه ومن قوته وسطوته قد نابت عنه فى المعركة وحققت مهابته مالا تحققه الجيوش الجرارة، كما أنه لايصح أن يحزن وقد ألزم نفسه شيئاً لايلزم القادة أنفسهم به، فعلى القادة نزول المعارك وخوضها بقوة وحزم، فإذا انسحب العدو، فلا عار على القائد، حيث أنه لم يتخاذل ولم يتوان، ثم يتساءل فى تعجب: ألا ترى النصر نصراً إلا إذا صافحت سيوفك رقاب الأعداء حتى آذانهم؟! وهو بذلك يبالغ فى تقدير سيف الدولة لمعنى النصر الذى لايكون إلا مخضباً بالدماء.

ويبدو أن هذه المعركة لم تكن نتيجتها فى صالح سيف الدولة وأظن أن فرار الروم كان

بعد أن ضربوه الضربة الأولى، وإلا فلماذا يلح المتنبى على تعزية الأمير لو لم يكن الأمر كذلك، إنه يستخدم كل براعته لتعليل عدم إدراك سيف الدولة لجند الروم، ولو كان فرارهم قبل القتال لما احتاج الأمر من المتنبى إلا قوله:

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت   لك المهابة مالا تصنع البهم

لكنه أخذ يجمع الممكن والمستحيل من الصور التى أراد من خلالها رفع الروح المعنوية لسيف الدولة وإعادة ثقته بنفسه التى يريد إعدادها للعتاب حيث يقول:

ياأعدل الناس إلا فى معاملتى   فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيذها نظرات منك صادقة   أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ومالنتفاع أخى الدنيا بناظره   إذا استوت عنده الأنوار والظلم(١)

بدأ المتنبى بتقرير صفة العدل لسيف الدولة، بل جعله أعدل الناس، ثم استثنى من عدله مع جميع الناس معاملته وحده، ثم يفوض له الأمر كله بعد أن جعله حكماً وخصماً وموضوع خصام، فهو كل شىء فى هذه القضية، وهو بذلك يستثير عدالته لينتصف لمن احتكم إليه من نفسه حتى يبلغ بذلك أقصى درجات العدالة.

ثم يرتفع بنظرة الأمير ونقاء ذهنه عن أن يخلط بين الأمور فلا يميز الخبيث من الطيب حتى وإن تشابها فى الشكل، كما يتشابه الشحم والورم مع اختلافهما فى الطبيعة.

---

(١) ناظره: عينه

وبالحكمة يغلف المتنبى عبارة فى منتهى القسوة، يوجهها لسيف الدولة، حيث يقول له: ماقيمة النظر إذا تساوت الأنوار مع الظلمات عند المرء، وفى هذا تجريح للأمير، ورمى له بعدم التمييز بين أوضح الأشياء تناقضاً وهى النور والظلمة.

عرفنا أن المتنبى يشكو ظلماً من سيف الدولة، فما طبيعة هذا الظلم وماظروف وقوعه؟

تتمثل طبيعة هذا الظلم فى إعراض سيف الدولة عن المتنبى وميله إلى غيره من الشعراء الذين لايساوونه فصاحة وشاعرية.

وقد كان المتنبى مقرباً لدى سيف الدولة أثيراً عنده، مما أثار عليه حفيظة غيره من الشعراء، وكان على رأسهم الشاعر الأمير «أبو فراس الحمدانى» بن عم سيف الدولة، الذى كان يحمل أشد الضغائن للمتنبى، ويحسده على مكانته من الأمير، ويحاول النيل من هذه المكانة، هذا بالإضافة إلى استعلاء المتنبى على الشعراء وذمهم والسخرية منهم ومن شعرهم بشكل جعله هدفهم جميعاً، يسعون به إلى الأمير ويحاولون الإيقاع بينهما حتى أفلحوا فى ذلك، وتغير الأمير من ناحيته، وكثر اعتذار المتنبى له وكثرت وشاية الواشين، فأراد المتنبى أن يحسم هذا الأمر بهذا العتاب الصريح الذى بدأه مادحاً، خافض الجناح، ولولا وجود أبى فراس الحمدانى وغيره من الشعراء الحاقدين عليه فى المجلس لاستمر يمدح فى لين، لكنه أحس بشماتتهم فيه وعز عليه أن يقطر ماء وجهه أمامهم، فراح يفجر بنفسه مستعلياً على الجميع، بما فيهم الأمير نفسه، ويفخر بشعره بازاً كل الشعراء، يقول:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا ... بأننى خير من تسعى به قدم

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

أنــام مــلء جـفونى عــن شواردهــا ويســهر الخلـق جـراها ويختـصم[1]

لاشك أن يأس المتنبى من عودة علاقته بسيف الدولة كما كانت، هو الذى دفعه إلى هذا لفخرر الذى تجاوز فيه كل الحدود، حتى أنه لم يقم وزناً لوجود الأمير، ولم يستثنه من هذا لجمع الذى ضمه المجلس.

وفخر المتنبى بنفسه لم يكن وليد هذه القصيدة أو هذا الموقف، وإنما اعتاد الرجل أن يفخر بنفسه كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، يقول فى إحدى قصائده التى كتبها فى صباه:

إن أكن مـعـجـبـاً فـعُجـب عـجـيـب لم يجـد فـوق نفسـه من مـزيد

أنا تِـربُ النـدى وربُ القـوافـى وسِمـامُ العدى وغيظ الحسود[2]

ويقول:

أى مـحـل أرتقـى أى عظيـم أتقـى

وكـل مـاخلـق اللـ ـه ومـالـم يـخلـق

محـتـقـر فـى همـتى كـشـعرة فـى مـفـرقى

ويقول:

وفـؤادى مـن الملـوك وإن كا ن لسـانى يـرى مـن الشـعراء

---

(١) شواردها: يريد أشعاره الذائعة الصيت، جراها: من أجلها

(٢) تِرب الإنسان: من ولد معه، سمام: جمع سم

ويقول:

تغرب لامستعظماً غير نفسه ... ولاقابلاً إلا لخالقه حكماً

يقولون لى ماأنت فى كل بلدةٍ ... وماتبتغى؟ ماأبتغى جل أن يسمى

ويقول:

أمط عنك تشبيهى بما وكأنه ... فما أحد فوقى ولاأحد مثلى

هكذا كان المتنبى فى تقديره لذاته، يراها الأعلى دائماً والأحق بالمجد والشرف ولايتنازل عن هذه الرؤية تحت أى ظروف كانت.

والغريب أن تكون هذه شخصيةِ شاعر مداح، يصح أن نقول يرتزق بشعره، فالمفترض أن المدح - لاسيما إذا كان الغالب على شعر الشاعر - يروض نفسه على الخنوع والخضوع وإنكار الذات وتفانيها، على الأقل أمام شخصية الممدوح، لكن المتنبى ظل يصون نفسه متمردة متعالية لاتقبل إذلالاً.

كما أن فخر المتنبى بشعره لايقل عن فخره بنفسه، فقد كان يمزج بين شعره وذاته مزجاً لاينفصل ولاينحل، ففخره بنفسه هو فخره بالمتنبى الشاعر، وفخره بشعره هو فخره بشعر المتنبى، وديوانه يمتلىء بالأبيات التى تصور شعره بما لم يصور به شعر شاعر.

يقول:

لاتَجْسُرُ الفصحاءُ تنشد هاهنا ... بيتاً ولكنى الهِزَبْرُ الباسلُ[1]

(١) الهزبر: الأسد

مانال أهل الجاهلية كلهم شعرى ولاسمعت بسحرى بابل

هنا يجعل المتنبى من مدح ممدوحه مدخلاً للفخر بذاته، فالشعراء لايجرؤن على إنشاد الشعر أمامه وذلك لهيبته وجلاله، أما المتنبى فهو الأسد الذى لاتصده هيبه، كما أن شعره فاق شعر أهل الجاهلية، وهو سحر لم تعرفه بابل وهى بلاد السحر.

ويقول:

إن هذا الشعر فى الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك

عدل الرحمن فيما بيننا فقضى باللفظ لى والحمد لك

فإذا مر بأذنى حاسد صار ممن كان حياً فهلك

ومع فخره بشعره يجعل من نفسه نداً لسيف الدولة، بل قسيماً له وقد عدل الله بينهما فقضى الفصاحة والشاعرية للمتنبى وقضى بالحمد والشكر لسيف الدولة، كما قدم نفسه عليه فى الترتيب، وهو يحس بأنه شاعر محسود على مجده الشعرى ويرى شعره قاتلاً للحساد كمداً، وهو القائل مخاطباً سيف الدولة:

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم فأنت الذى صيرتهم لى حسدا

ويقول:

شاعر المجد خدنه شاعر اللفـ ـظ كلانا رب المعانى الدقاق

وهو هنا يمدح أبا العشائر بأنه شاعر، ولكنه شاعر مختلف، فهو يتعنى بالمجد فعلاً لا قولاً، ويجعل من نفسه خدنا له ومكافئاً، فكلاهما رب المعانى الرقيقة حيث لايستطيع أحد مجاراة أبى العشائر فى مجده وفعاله، كما لايستطيع أحد أن يجارى المتنبى فى مجده

الشعرى وقدرته على إبداع الغريب من الشعر.

ويقول:

لاتطلبن كـريمـاً بعـد رؤيتـه ... إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا

ولاتبـال بشعر بعـد شاعـره ... قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وهكذا يقول المتنبى بيتا يرفع به ممدوحه ثم يتبعه بيتاً يرفع به نفسه وشعره حتى يقف إلى جوار ممدوحه كتفاً بكتف، وربما جعل كتفه أعلى.

ويقول:

ومـاالدهـر إلا من رواة قصـائدى ... إذا قلت شعـراً أصبح الدهر منشـداً

فسـار به من لايسير مشـمـراً ... وغنـى بـه مـن لايغنـى مـغـرداً

أجـزنى إذا أنشـدت شعـراً فإنمـا ... بشـعرى أتـاك المادحـون مـردداً

ودع كل صـوت غيـر صوتى فـإننـى ... أنـا الطاهـر المحكـى والآخر الصدى

هنا يجعل المتنبى من الدهر راوية لشعره ومنشداً، وهو يتيه بشعره حتى على ممدوحه، ويجعل الجائزة حقاً له لامنحة، حيث جاء الشعراء يرددون شعره وفى ذلك مجد للممدوح، كما يرى شعره الأصل بينما الآخرون يقلدون شعره كما يقلد الصدى الصوت.

هكذا كان فخر المتنبى بشعره وتقديره له، لذلك لم يكن غريباً أن يقول:

أنام ملء جـفـونى عن شـواردها ... ويسـهـر الخلق جـراها ويختـصم

فما أسهل أن يبدع هذه الأشعار الرائعة ثم ينام هادىء البال مطمئنه، بينما الناس من نقاد

وشعراء يسهرو الليالى فى تحليلها ودراستها وحفظها أو محاولة إبداع مثلها.

بعد أن أسعف المتنبى ذاته بالفخر بها وشعره بأن ارتفع به فوق كل شعر، كان عليه أن يستعرض قوته كفارس، فقال:

وجاهل مده فى جهله ضحكى	حتى أتته يد فراسة وفم [(١)]
إذا رأيت نيوب الليث بارزة	فلا تظنن أن الليث يبتسم
ومهجة مهجتى من هم صاحبها	أدركتها بجواد ظهره حرم [(٢)]
رجلاه فى الركض رجل واليدان يدٌ	وفعله ماتريد الكف والقدم
ومرهف سرت بين الجحفلين به	حتى ضربت وموج الموت يلتطم [(٣)]
الخيل والليل والبيداء تعرفنى	والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت فى الفلوات الوحش منفرداً	حتى تعجب منى القور والأكم [(٤)]

ويرى المتنبى أن قوة الفارس تبدو أول ماتبدو فى حلمه، وهو أمام الجاهلين رجل حليم، لاعن ضعف لكن عن رغبة فى قمع الشر فى نفسه، فإذا ماازداد الجاهل جهلاً أمام ذلك الحلم، فلابد من المواجهة العنيفة من خلال اليد القوية المفترسة، والفم الفصيح الهَجَّاء الذى يمكنه أن يقوم مقام جيش بأكمله، وهو يضرب مثلاً لتبسمه فى وجه الجاهل عليه بالأسد الذى يكشر عن أنيابه استعداداً للانقضاض على فريسته، فليس ظهور أنيابه على هذه الحالة تبسماً أو ضحكاً.

---

(١) فراسة: مفترسة

(٢) المهجة: الروح، جواد ظهره حرم: أى آمن لمن يركبه

(٣) مرهف: يقصد سيفه الحاد ، الجحفل: الجيش

(٤) الفلوات: جمع فلاة، وهى الأرض المقفرة، القور: المكان العالى من الأرض، الأكم: الجبل الصغير

ويتيه بجواده القوى الذى يكو ظهره حرما آمنا لمن يركبه فلا يصيبه مكروه كما لايصيب المحتمين بالحرم، فهو يدرك بذلك الجواد روح عدوه الذى كان يسعى لإدراك روحه هو ويجعلها همه.

ونلاحظ فى هذا البيت «ومهجة مهجتى من هم صاحبها   أدركتها بجوارد ظهره حرم» أن المتنبى كان شديد التحكم فى المعنى بحيث وضعه - وهو معنى ملتف مكثف - فى بيت واحد، وهذه قدرة لاتتأتى إلا لشاعر عملاق كالمتنبى.

ولانتفق مع أستاذنا الدكتور «محمد أبو الأنوار» الذى يرى البيت غامضاً ومليئاً بالمعاظلة والغموض، حيث يقول:

«والبيت عندى لايخلو من غموض ومعاظلة والشاعر يريد أن يقول: رب مهجة من هم صاحبها أن يلحق بى القتل، ولكنى أنا الذى أفتك بهذا العدو وأدركه بجواد من ركبه كان آمناً. كأن ظهره أرض الحرم من لاذبه كان فى مأمنه» [1].

وهذا ليس شرحاً للبيت، فقد أورد أستاذنا شرح البيت بعد ذلك، ولكنه تبخير للتكثيف الذى قام به المتنبى فى البيت، أو إعادة كتابة البيت بشكل منثور ليكون أوضح وأيسر للقارىء.

لكننى أرى أن البيت يخلو من المعاظلة والتعقيد والغموض، ومن خلال القراءة الثانية أو الثالثة على الأكثر - قراءة متأنية، معربة للبيت- يتضح البيت تماماً، فيكون ترتيب البيت فى

---

(١) فى الشعر العباسى تطوره وقيمه الفنية د. محمد أبو الأنوار ص٣٥٥ ط. مكتبة الشباب

تصورى كـالآتى: «ومهجة أدركـتها بجواد ظهـره حرم، وكانت مهـجتى من هم صاحبـها» وهذا التـرتيب هو نفـسه ترتيب المتنبى، فنحن لم نزد عليـه إلا كلمـة (كانت)»، ولو كـتب البيت هكذا:

ومهـجة - مـهجتى من هـم صاحبـها- أدركـتها بجـــواد ظهــره حـــــرم

لخلا تماماً مـن التعقيد والـغموض والمعاظلة التى يشـعر بها البعض، ولانفـتح البيت من القراءة الأولى.

ثم اتجه المتنـبى إلى ووصف فرسه السـريع، الذى تبدو رجـلاه من شدة السرعـة كأنهـما رجل واحدة وتبدو اليدان كأنهـما يدُ واحدة، وهو شديد الاستجابة لحركات فـارسه، فيفعل ماتريد قدمه وكفه وكأنهما جسد واحد.

وهو بسيفه المرهف يسير بين الجـيشين العظيمين، ويظل يضرب والموت يحيط به من كل جانب كـأنه الموج العاتى الذى يطغى على الشط ويكسـر الصخور، لكنـه لايبالى بكل ذلك لشجاعـته، فقد عرفـته الخيل فارساً شـجاعاً مغواراً، وعـرفه الليل جوالاً فيه لايهـاب ظلمته وماتخبىء من شرور للعابرين، وعـرفته الصحارى، فقد جابها شرقـاً وغرباً وعرف كل شبر فيـها وكل حـبة رمل من رمـالها، وعرفـه السيف قـتالاً، والرمح طعـاناً، والأوراق والأقلام شاعراً فصيحاً لايدانيه شاعر عربى.

وهو بكل هذه السجـايا كان خليقاً أن ينفـرد فى الصحراء مع الوحوش لايهـابهم، حتى تعجبت منه مظاهر الطبيعة من مرتفعات ومنخفضات.

لاحظنا أن المتنبى فـخر بالحلم والشـجاعـة والبطش والفـروسية والفـصاحـة، وهذه من السمات التى يعتز بها العربى لكنه لـم يفخر بأهم مفاخرهم وهى الكرم وعلو النسب.

فهل كان المتنبى بخيلاً؟ وهل كان ذا نسب وضيع؟

كان المتنبى بخيلاً فعلاً (وقد سئل فى ذلك فقال: إن للبخل سبباً، وذلك أنى أذكر وقد وردت فى صباى من الكوفة إلى بغداد، فاتخذت خمسة دراهم فى جانب منديل، وخرجت أمشى فى أسواق بغداد، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة، فرأيت خمسة بطيخات باكورة فاستحسنتها ونويت أن أشتريها بالدراهم التى معى، فتقدمت إليه: بكم هذه الخمس بطاطيخ؟ فقال: بغير اكتراث- اذهب فليس هذا من أكلك، فتماسكت معه وقلت: أيها الرجل دع مايغيظ واقصد الثمن، فقال: ثمنها عشرة دراهم، فلشدة ماجبهنى به ماستطعت أن أخاطبه فى المساومة، فوقفت حائراً، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل، وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهباً إلى داره فوثب إليه صاحب البطيخ من دكانه ودعا له وقال: يامولاى هابطيخ باكورة، بإجازتك أحمله إلى منزلك، فقال الشيخ: ويحك! بكم هذا؟ فقال: بخمسة دراهم، فقال: بل بدرهمين، فباع الخمسة بدرهمين، ودعا له وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل، فقلت: ياهذا مارأيت أعجب من جهلك، استمت على فى هذا البطيخ وفعلت فعلتك التى فعلت، وكنت قد أعطيتك فى ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولاً!! فقال: اسكت. هذا يملك مائة ألف دينار... وأنا لاأزال على ماتراه حتى أسمع الناس يقولون: إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار)[1].

(وهذه الصفة كانت نتيجة حبه للعلا وطماحه للمجد وحرصه على أن ينهض بتبعاته الثقال التى يعد نفسه لها، خاصة وأن مثل المتنبى فى طباعه وخلائقه لايصادق الضعفاء أو

---

(١) ديوان المتنبى جـ١ ص٦،٥ شرح عبد الرحمن البرقوقى ط. دار الكتاب العربى، بيروت

المتوسطين من الناس، بل شأنه أن يكون فى تعامله على اختلاف ألوانه ومشاربه مع الكبار من ذوى الشأن والغلب، ومثل هؤلاء يدفعونه فى صراعه معهم ومع الحياة إلى التسلح بالاستغناء، والمال عصب فى هذا الدور من أطوار الصمود والكفاح، فلم تكن ظروف شخصيته تجعل منه ذلك الشخص الذى يفرغ للنظر فى شئون المحتاجين وذوى العسرة، أو تجعل مسألة الإحسان والعطاء هماً من همومه، بل ذلك شأن الآخرين الذين ليس هو منهم)[1].

والطريف أنه لما أصاب الثراء فى رحاب سيف الدولة لم يتغير سلوكه فى الإنفاق، على الرغم من أنه ترك كل مايملك للفقراء، ولكن ماذا ترك لهم؟ يقول:

تركت السرى خلفى لمن قل ماله	وأنعلت أفراسى بنعماك عسجداً

فلم يكن يملك غير السير بالليل والترحل فى الصحراء، فلما أصبح غنياً ترك ذلك للفقراء وألبس خيله نعالاً من الذهب.

لذلك لم يفخر المتنبى بالكرم حتى لايقابل بالسخرية من الجالسين المتربصين المنتظرين منه هفوة، ولم يفخر المتنبى بنسبه حث لم يكن رفيع النسب منتيماً لأحد البيوت الكبيرة، وإنما كان من أسرة فقيرة، وكان أبوه يعمل سقاءً بالكوفة، وقد هجاه أحد معاصريه قائلاً:

أى فضل لشاعر يطلب الفضـ	ـل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع فى الكوفة الما	ء وحيناً يبيع ماء المحيا

---

(١) فى الشعر العباسى ص٣٢٠

وهو بذلك يعرض بمهنة أبيه الذى كان يسمى «عيدان السقاء».

ولم يكن لمسألة نسبه هذه تأثير على ذاته المتضخمة ولا على شعره، إنما كان يتجاوز هذه المسألة بنفس الاستعلاء والشموخ فيقول:

لابقومى شرفت بل شرفوا بى	وبنفسى فخرت لابجدودى

وقال فى رثاء جدته يخاطبها:

ولو لم تكونى بنت أكرم والدٍ	لكان أباك الضخم كونك لى أما

لم يكن المتنبى يفخر بنفسه، بل كان يفخر بانتسابه لنفسه، ويتيه بنفسه على أهله ويرى نفسه مدعاة فخر لهم.

بعد أن افتخر المتنبى بنفسه فارساً واستجمع قواه النفسية، كان عليه أن يعلن قرار رحيله عن سيف الدولة، فقال:

يامن يعز علينا أن نفارقهم	وجداننا كل شىء بعدكم عدمُ
ماكان أخلقنا منكم بتكرمةٍ	لو أن أمركمُ من أمرنا أمم[1]
إن كان سركم ماقال حاسدنا	فما لجرح إذا أرضاكمُ ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة	إن المعارف فى أهل النهى ذمم[2]

(١) أمم: قريب

(٢) النهى: العقوول، ذمم: عهود

وعلى الرغم من أن هذا الرحيل لابد منه فإن الشاعر حزين لاضطراره للرحيل، وعزيز عليه مفارقة صاحبه وأميره وممدوحه الذى أنتجت خصاله الحميدة مع قريحة المتنبى الشعرية، أروع القصائد التى شهدها عالم القصيدة، إذن كل شىء بعد هذا الرحيل عدم فى عين أبى الطيب.

ويعاود المتنبى رقته فى العتاب، فيقول لسيف الدولة: ماكان أحقنا بتكريمكم لنا ورعاية وجودنا لو كان فى قلبكم حب قريب مما فى قلبنا. لكنكم استمعتم إلى قول الحساد بل سررتم به، ومع أن ذلك قد جرحنا إلا أننا لانتألم لجرح أرضاكم، ولكن كان يجب عليكم أن ترعوا حق العلاقة القديمة الحميمة، فالمعارف والعلاقات والعهود والمواثيق عند أصحاب العقول، يجب رعايتها والمحافظة عليها وعدم نقضها.

ويتدفق إحساس المتنبى بذاته فيشتد فى خطاب سيف الدولة، فيقول:

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ماتأتون والكرم

ماأبعد العيب والنقصان عن شرفى أنا الثريا وذان الشيب والهرم[1]

هنا يتجاوز حد العتاب إلى مهاجمة سيف الدولة، واتهامه بالتربص له والبحث عن سقطاته وتلمسها له، مع أن الدين ينكر ذلك السلوك، كما تنكره الأخلاق الكريمة، ثم يثب المتنبى للدفاع عن ذاته ضد هذه المحاولات، فيقرر أن شرفه أبعد مايكون عن العيب والنقصان، فهو كالأنجم العالية التى لاتدركها انحناءات

---

(١)الثريا: الأنجم المجتمعة، الهرم: الكبر والشيخوخة

الشـيخوخـة وتجاعـيـد العجـز، وهـو يربط بشكل فنى بين أن تشيخ النـجوم وبين التـصاق العيب به.

وقوله: «أنا الثريا وذان الشيب والهـرم» يجعلنا نشير إلى إكثار المتنبى من اسـتخدام كلمة «أنا» فى شعـره، وطبيعـى أن يكثر من اسـتخدامهـا شاعر نرجـسى يحس بعملقـة ذاته أمام الذوات الأخرى، ومن أمثلة ذلك قوله:

أنـــا تـــرب النـــدى ورب القـــوافى   وســـمــام الـعـدى وغـيظ الحــســود

أنـــا فــــى أمـــة تداركـــه اللـــــ   ـــه غـــريب كـــصـــالح فى ثـمـــود

وقوله:

أنا ابن مـن بعـضـه يـفـوق أبا البـا   حـث والنجل بـعض من نجلــــــه

أنا الـذى بـين الإلـــه بـــه الأقـــدا   ر والمرء حـــيـــثـــمـــا جـــعـله

وقوله:

أنا صـــخـرة الـواى إذا مـازوحـمت   وإذا نطقـــت فـإننـــى الجـــوزاء

وقوله:

أنا الـــذى نظر الأعـمى إلى أدبـــى   وأسـمـعت كلمـاتى من به صـمـم

وقوله:

أنا ابن الـلقـاء، أنا ابـــن الســـخـاء   أنـا ابن الضـراب، أنا ابن الـطعـان

أنا ابـن الفـــيـافـى، أنا ابن الـقـوافـى   أنا ابن الســروج أنـا ابن الرعـــان

وقوله:

كـذا أنا يادنيـا، إذا شـئت فـاذهبى ويانفـس زيدى فى كـرائهـهـا قـدمـاً

(إن الإشارة بالأنا تتجاوز إذن دائرة الفخر التقليدى لتنزل فى سياق الرفض الذى يقوم أساساً على صلابة الذات)(1)، ذلك فضلاً عن إكثاره من استخدام «ياء المتكلم» و«تاء الفاعل» وكذلك استتار «أنا» إذا لم يسمح الوزن أو النه

بعد أن عزف المتنبى سيفونية الرفض وجعل العيب والنقصان بعر

لأيام صفائه مع سيف الدولة، فقال:

ليت الغمـام الذى عندى صـواعـقـه يزيلهن إلى *

أرى النوى يقـتـضـينى كل مـرحلـة لاتستـقل

لئن تـركن ضـمـيـراً عن مـيـامننا لـيـحـدثن

إذا ترحلـت عن قـوم وقـد قـدروا أن لاتفـار

هنا يتمنى الشاعر أن يزيل سيف الدولة الغضب عنه ويوجهه إ

الوشاة الذين يكافؤهم بتقريبهم واصطفائهم، بينما يبعده ويجفوه.

والآن يصرح الشاعر بترحله عن سيف الدولة، وهو يشعر بداية بصعوبة هذا الرحيل ومشقته حيث تعجز الإبل السريعة القوية عن قطع هذه الرحلة.

---

(1) «الرفض ومعانيه فى الشعر العربى» يوسف الحناشى الدار العربية للكتاب تونس ص117

(2) الديم: المطر الهادىء (3) النوى: البعد، تقتضينى: تكلفنى، الوخادة: الإبل المسرعة، الرسم: التى ترسم بأخفافها فى الأرض

(4) ضمير: اسم جبل على يمين الراحل من الشام إلى مصر

وأعتقد أن هذه الصعوبة التى يستشعرها أبو الطيب إزاء هذا الرحل أمر غريب عليه، وهو رجل كثير الترحال لايستقر بأرض حتى يغادرها ولاتقوم بينه وبين أى مكان ألفة أو مودة كالتى تقوم بين الناس والأماكن التى يرتادونها، وفى شعره إشارات إلى هذا المعنى، حيث يقول:

ألفت ترحلى وجعلت أرضى ... قتودى والغريرى الجلالا[1]

فما حاولت فى أرضى مقاماً ... ولاأزمعت عن أرض زوالا

على قلق كأن الريح تحتى ... أوجهها جنوباً وشمالاً

يقول:

غنى عن الأوطان لايستخفنى ... إلى بلد سافرت عنه إياب

أعز مكان فى الدنى سرج سابح ... وخير جليس فى الزمان كتاب[2]

يقول:

وكل امرىء يولى الجميل محبب ... وكل مكان ينبت العز طيب

إذن لم يكن للمكان فى نفس المتنبى ذلك الأثر الذى يجعل الرحلة عن مكان ما مسألة صعبة وشاقة تضيق بها الناقة القوية والفرس العظيم.

---

(١) القتود: جمع قتد وهو خشب الرحل، الغريرى: الفحل الكريم، الجلالا: العظيم

(٢) السابح: الفرس السريع الجرى (والأبيات بتصرف اوردتها من غير ترتيب)

وفى رأيى أن ترحال المتنبى عن سيف الدولة ترحال نفسى وهذا هو سر صعوبته، فبعد تطواف طويل فى شرق البلاد وغربها، وجد المتنبى سيف الدولة، وجد فيه شخصية العربى الذى يتمناه بعد أن أصبح العرب دمىً فى يد الأعاجم، فكان سيف الدولة رمزاً للإباء العربى الذى كان يرجوه المتنبى ويبحث عنه، لذلك لما وجده أخلص له المدح واتخذه صديقاً وكان معه فى الحروب فارساً والآن هو ينوى الرحيل، والرحيل إلى مصر حيث يحكمها عبد يسمى كافور أسود مثقوب الأذن، فأين هذا العبد من سيف الدولة العربى الأصيل الكريم الشهم الشجاع الوسيم، الذى وجد فيه المتنبى رمزاً للمجد العربى ورفعة المجتمع العربى بعد انتكاسته وانقسامه إلى دويلات ضعيفة هزيلة لايمكنها أن تصد معتدياً أو تصمد أمام غازٍ.

إذن كانت المشقة والصعوبة اللتان يستشعرهما المتنبى تمثلان إحساسه الصادق، كما أن الناقة القوية والفرس العظيم الضخم لايمكنهما أن يقطعا هذه المسافة التى هى فى وجدان أبى الطيب على الرغم من أنها أقصر من المسافة بين قطرة وأخرى من دمه.

وأمام إحساس المتنبى بمدى خسارته بقيامه بهذه الرحلة - الاضطرارية - كان من حقه أن يهدد الأمير ويضع أمامه صورة واضحة للوضع بعد رحيله، فلابد أن ينتابهم الندم لأنهم فرطوا فى شاعرهم وفارسهم. وهو يرى أنه لم يرحل عنهم بل هم الذين رحلوا عنه، لأنهم كانوا يستطيعو أن يسترضوه ويعملوا عل إبقائه معهم، لكنهم خذلوه واستمعوا إلى قول الوشاه فيه، فبذلك كانوا راضين برحيله حيث كان يمكن منعه ولكنهم تقاعسوا، إذن هم الراحلون وليس هو.

وهذا المعنى يؤكد رأينا فى أن هذا الرحيل رحيل نفسى قبل أى شىء.

ومن المرارة التى تغص بها نفس المتنبى انطلق لسانه بالحكمة فقال:

شر البلاد مكان لاصديق به	وشر مايكسب الإنسان مايصم[1]
وشر ماقنصته راحتى قنص	شهب البزاة سواء فيه والرخم[2]
بأى لفظ تقول الشعر زعنفة	تجوز عندك لاعرب ولاعجم[3]
هذا عتابك إلا أنه مقة	قد ضمن الدر إلا أنه كلم[4]

وهذه الحكمة ليست حكمة مجردة، ولكنها وليد شرعى للموقف، ومن خلالها يعلن المتنبي أنه لم يعد له فى هذه البلاد صديق، إذن ذهب سيف الدولة الصديق، وبقى الأمير الممدوح المانح إذا كان عطاؤه على حساب كرامة المتنبى فهو شر العطاء، وشر ماكسبه الشاعر كسب تساوى به مع الأخساء من الشعراء المفتقرين إلى الفصاحة وطلاقة اللسان.

ويكره أبو الطيب أن يتساوى مع هؤلاء تماماً كما يكره أن تتساوى النسور الجارحة القوية الشامخة العالية مع الطيور الحقيرة آكلة الجيف، إن فى هذه المساواة إهانة كبرى للشاعر الذى كان يرى الكون تحت قدميه.

وهذا العتاب الذى وجهه الشاعر لصاحبه، برغم كل مافيه من تجريح وخشونة وإغلاظ أحياناً، إلا أنه صادر عن الحب، وعلى الرغم من أنه كلام، إلا أنه حوى بين جنباته دراً

---

(١) يصم: يعيب

(٢) قنصته: صادته، شهب البزاة: الصقور ذات الريش الأبيض المختلط بسواد، الرخم: طيور ضعيفة تأكل الجيف

(٣) الزعنفة: اللئيم

(٤) المقة: الحب

خالدة تعيش قوية فى زمن متداع، وتبقى مصقولة جلية براقة، رغم الأيام الصدئة.

إدعاؤه النبوة

عرضنا من خلال القصيدة بعض الجوانب من حياة وشخصية وشعر المتنبى، وبقى أن نتطرق إلى مسألة هامة، وهى مسألة إدعائه النبوة، وهذه المسألة قد حيرت الكثير من الباحثين على مر العصور، ففى شخصية الرجل وسلوكه وطبيعة العصر الذى عاشه، فى كل ذلك مايدفع إلى قبول حدوث هذا الإدعاء، وثبوت التهمة عليه. والذى يجعل الحيرة أوسع بحيث تشمل كل من كتب فى هذه المسألة، أن فى شخصيته وسلوكه وطبيعة عصره أيضاً مايدفع إلى رفض هذا الإدعاء.

المسألة إذن مسألة اختلاف فى وجهات نظر الباحثين فى شخصيته وسلوكه وطبيعة عصره. والواقع أن المتنبى عاش حياة كريمة بين العرب المسلمين، وتجول فى البلاد بكل عزة وكرامة ولم يبرح أرضاً إلا بإرادته التى تملى عليه مايناسب إحساسه بذاته ومكانته، كما حظى شعره بشهرة عريضة، لم يكن عربى فى عصره لايعرفه ولايحفظ شيئاً من شعره، وقد نزل على الولاة والأمراء فمدحهم وأكرموه وأجزلوا له العطاء، وكانوا يحرصون على بقائه معهم ماستطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

هل كان يمكن أن تكون هذه حياة رجل اتهم بادعاء النبوة؟! هل كان العرب يقبلون بينهم رجلاً يكذب على الله ويرفع نفسه إلى مكانة مساوية لمكانة نبيهم صلى الله عليه وسلم، ذلك فضلاً عن الترحيب به والعمل على إرضائه واستبقائه، وقد كانت القبائل تلقى بأبنائها فى لظى الحرب من أجل نصرة أى رجل علوى أو حتى يدعى العلوية، وذلك غيرة منهم على آل البيت، فما بالنا بغيرتهم على نبيهم نفسه،

ودينهم الذى أقام لهم هذه الدولة التى يموتون من أجل الحفاظ عليها وإعادتها إلى ماكانت عليه من قوة وسيطرة.

وهل كانوا يحتفون بشعر شاعر تجاوز الزندقة بمراحل أدت إلى إدعاء النبوة؟ ويشرحونه ويحفظونه، بينما أسقط تاريخ الأدب من أشعار الجاهليين ماذكروا فيه الأصنام والأوثان، فلم يبق من ذلك إلا النذر اليسير الذى ارتبط بحادثة معينة مع شاعر معين، كالصنم المسمى (بذى الخلص) مثلاً مع امرىء القيس.

إن العرب الذى تركوا أشعاراً كثيرة لوجود أسماء الأصنام فيها، ماكانوا ليحافظوا على شعر رجل ادعى النبوة وحاول محاكاة قرآنهم - كما تنسب ذلك له بعض الروايات - حتى يصل إلى أيدينا محققا، مشروحاً، حاملاً سيرة صاحبه.

بعيداً عن التطرق إلى تفاصيل هذه المسألة، وذكر كل أو حتى معظم الآراء التى قيلت فيها، نستطيع أن نقول دون مغالاة أن المتنبى لم يدع النبوة. فمن أين إذن لحقه هذا اللقب؟

يجيب على هذا السؤال شيخنا الأستاذ محمود شاكر فيقول:

(وعندنا أن أبا الطيب لما عاد من الكوفة سنة ,٣٢٦ واتصل سببه ببدر بن عمار ولزمه وعلا عنده وأصاب كرامة لم يصب مثلها من قبل، وناوشه الشعراء إذ خافوه على أرزاقهم ، وطفقوا ينتقصون الرجل ويطلبون له العيوب وأغراهم لذلك ما وجدوا من ترفعه عن مجالس لهوهم وانصرافه عن الهزل الذى يكونون فيه، وظنوا به الكثير فأخذوا يذكرون شعره ويتنادرون به، فلما وقعوا على كثرة دوران أسماء الأنبياء فى هذا الشعر وتشبيه نفسه بهم، وماهو فيه من التعفف والتورع، أرادوا له

لقباً ينبذونه به، فلقبوه (المتنبى) يريدون المتشبه بالأنبياء، وأخذوا يذكروه بهذا الاسم ويتداولونه بينهم)[1].

ومن الواضح أن شيخنا قد أجهد ذهنه للوصول إلى هذا التحليل، لكنه التحليل الوحيد المقنع حينما نرفض مسألة إدعاء المتنبى النبوة.

مقتله

قتل المتنبى بسبب الهجاء، على الرغم من أن الهجاء لايمثل ركناً أساسياً فى ديوانه، وإنما اقتصر على النتف اليسيرة وبعض المقطعات التى هجا فيها كافور والى مصر وهجا معه شعب مصر الذى جعله والياً وحاكماً.

وكان المتنبى قد قصد مصر ليمدح واليها كافورا، الذى كان عبداً أسود خصيا مثقوب الأذن، لكن المتنبى لم يكن يهتم بهذه الصفات فى أول الأمر، فالرجل يبحث عن ولاية يليها يبدأ بها نواة دولة كبيرة، فلا بأس إذن من مدح كافور العبد، إذا كان ذلك يحقق مأربه، لكن كافور خذله وخيب أمله، فأطلق المتنبى فيه لسانه يهجوه، فقال:

أريك الرضى لو أخفت النفس خافياً ... وماأنا عن نفسى ولاعنك راضيا

أمينا وإخلافاً وغدراً وخسة ... و جبناً، أشخصاً لحت لى أم مخازيا؟![2]

تظن ابتساماتى رجاءً وغبطة ... وماأنا إلا ضاحكاً من رجائيا

---

(١)«المتنبى» للأستاذ محمود شاكر

(٢) المين: الكذب، المخازى: الأفعال القبيحة المخزية

وتعجبنى رجلاك فى النعل إننى ... رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا

وإنك لاتدرى ألونك أسود ... من الجهل أم قد صار أبيض صافياً

ويذكرنى تخييط كعبك شقة ... ومشيك فى ثوب من الزيت عاريا

ولولا فضول الناس جئتك مادحاً ... بما كنت فى سرى به لك هاجياً

فأصبحت مسروراً بما أنا منشد ... وإن كان بالإنشاد هجوك عاليا

فإن كنت لاخيراً أفدت فإننى ... أفدت بلحظى مشفريك الملاهيا

ومثلك يؤتى من بلادٍ بعيدة ... ليضحك ربات الحداد البواكيا

هنا يخرج المتنبى كل تقززه من ذلك العبد الذى اضطره طموحه إلى مدحه، فيقول له إن نفسه لم تعد تطيق إظهار الرضا عنك والحب لك، كما يظهر لومه وعتابه لنفسه التى قصدت ذلك الرجل الذى لم يعرف حق المتنبى ولم يرع قدره، ثم يصفه بكل صفات الرجل الدنىء من الكذب وإخلاف الوعد والغدر والخيانة وخسة الأصل والجبن، ثم يتساءل فى تقريرية: أشخص أنت أم مجموعة من الأفعال الدنيئة المخزية، قد تمثلت فى بشر؟! ثم يصون ابتسامته عن أنها ابتسامة رجاء وخضوع وتمنٍ، لكنها ابتسامة الضاحك من رجائه الذى يطلبه عند من لايكون أهلاً للرجاء، ثم يشير إلى رجليه الغليظتين المشقّقتين اللتين يظنهما الرائى منتعلتين لشدة سوادهما، ويرى أن الخيوط التى تكون فى الحذاء تشبه الشقوق التى ملأت كعب كافور، وفى هذا إشارة إلى أيام عبوديته التى كان يقضيها حافياً، وهو يرى أن جلده الأسود يشبه ثوبا من الزيت إذا تصبب منه العرق بينما هو عارٍ.

ويقول لولا فضول الناس وتدخلهم فيما لايعنيهم لمدحتك بالهجاء الذى أضمره لك فى

نفسي، فمثلك لايمكن له أن يفرق بين المدح والهجاء لشدة غبائه، وكثيراً ماكنت تسر وتظنني أمدحك، بينما أنا أهجوك وأنت لاتفهم الكلام.

وأخيراً يقرر المتنبي أنه لم يستفد خيراً من كنف ذلك العبد، ثم يسخر من نفسه أو يأسى عليها، فلم تستفد إلا رؤية شفتيه الغليظتين اللتين تشبهان شفتي البعير، فمثله يقصده الناس من البلاد البعيدة القاصية ليضحك الثكالي بمنظره الغريب فيخرجون من حزنهم وينخرطون في الضحك منه.

وقال يهجو كافوراً أيضاً:

فلا تَرَجَّ الخير عند امرىء	مرت يد النخاس في رأسه[1]
وإن عراك الشك في نفسه	بحاله فانظر إلى جنسه
فقل مايلؤم في ثوبه	إلا الذي يلؤم في غِرسه[2]
من وجد المذهب عن قدره	لم يجد المذهب عن قنسه[3]

يقول المتنبي إنه ليس عند عبد أذله النخاس وعبث به يمينا ويساراً وأوسعه ضرباً، ليس عند هذا العبد الذي عاش تلك الظروف خير، لاسيما إذا أصبح أميراً أو والياً، فيستمر إحساسه بالنقص ويحاول إذلال الناس.

ثم إنك إذا شككت فيه وفي فعاله، فانظر إلى أصله من العبيد الذين لايرجى منهم خير

---

(١) النخاس: تاجر الرقيق

(٢)الغرس: جلدة رقيقة تخرج مع المولود

(٣) القنس: الأصل

ولاكرم ولا مروءة، فالذى ولدته أمه لئيماً وضيعاً لابد أن يستمر على لؤمه ووضاعته حتى يفارق الحياة، وإذا صار ذا قدر ونسى أيام عبوديته فإنه لايستطيع أن ينسى أصله.

وقال يهجوه أيضاً وهو راحل عن مصر:

العبد ليس لحر صالح بأخ ... لو أنه فى ثياب الحر مولود

لاتشترِ العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد[1]

ماكنت أحسبنى أحيا إلى زمن ... يسيىء بى فيه عبد وهو محمود

ولاتوهمت أن الناس قد فقدوا ... وأن مثل أبى البيضاء موجود[2]

يقرر المتنبى أن العبد لايمكن أن يكون أخاً وقريناً لحر صالح حتى لو كان مولوداً فى ثياب الحر، والعبيد أنجاس لاخير فيهم ولايصلحون إلا بالضرب والإهانة والازدراء، ثم يأسف لأن العمر امتد به حتى الزمن الذى يكون فيه العبد محموداً مشكوراً بينما يسيء للأحرار والأشراف، ولاكان يخطر فى باله حتى على سبيل التوهم أن الناس قد ماتوا جميعاً فلم يبق إلا كافور، ويكنيه بأبى البيضاء استهزاءاً به، فمن أين تأتيه الطفلة البيضاء وهو بهذا اللون[1]، إنه زمن ردىء ذلك الذى ترقى فيه كافور وحده ليحكم الناس.

كان هذا بعضاً مما هجا به المتنبى كافوراً، وقد استطاع أن يرحل عن مصر

---

(١) مناكيد: جمع منكود وهو الرجل قليل الخير

(٢) أبى البيضاء: يقصد كافوراً وفيه استهزاء به

(٣) نلفت نظر القاريد إلى أننا نشرح شعر المتنبى ولانتبنى رأيه فى مسألة العبودية والألوان. «المؤلف»

دون أن يمسه سوء، وكان مقتله بسبب قصيدة هجا بها رجلاً يسمي «ضبة بن زيد»، قال فيها:

ماأنصف القوم ضبة	وأمة الطرطبة[1]
وماعليك من القتـ	ـل إنما هى ضربة
وماعليك من الغد	ر إنما هى سبة[2]
ياقاتلاً كل ضيف	غناه ضيح وعلبة[3]
وخوف كل رفيق	أباتك الليل جنبه
كذا خلقت ومن ذا الـ	ـذى يغالب ربه
ومن يبالى بذمٍ	إذا تعود كسبه
فسل فؤادك ياضبـ	ـة أين خلفّ عجبه[4]
وإن يخنك فعمرى	لطالما خان صحبه
وكيف ترغب فيه	وقد تبينت رعبه
ماكنت إلا ذباباً	نفتك عنا مذبة[5]
وإن بعدنا قليلاً	حملت رمحاً وحربة

(١) الطرطبة: اسم أم ضبة، وقد حذفنا بعض الأبيات لكثرة الفحش فيها

(٢) السبة: العار

(٣) غناه: كفاه، الضيح: اللبن الممزوج بالماء، العلبة: قدح من الجلد يشرب به الماد

(٤) العجب: الكِبر

(٥) المذبة: مايطرد به الذباب

وقلت ليت بكفي عنان جرداء شطبه[1]

إن أوحشتك المعالي فإنها دار غربة

أو آنستك المخازي فإنها لك نسبة

يتعرض المتنبي لحادثة مقتل أبي ضبة وقد فر وترك أباه، وهو يستخف به ويسأله مستنكراً: ماعليك والقتل ليس إلا ضربة ويموت القتيل، والغدر يتناقله الناس ويسبونك به ولن ينالك من سبهم أذى. وهو بذلك يشير إلى خسته وعدم اهتمامه بسمعته وسيرته بين الناس.

ثم يصفه بالبخل الشديد لدرجة قتل الضيف الذى يغنيه أقل القليل من لبن مخلوط بالماء موضوع فى إناد بسيط من الجلد، فهذا الضيف الذى لن يكلفه إلا القليل المتيسر فى كل بيت. يضيق به ضبة حتى يهم بقتله، ويصفه بالغدر حتى أن أصحابه يخافونه على أنفسهم فلا يطمئنو لنومه إلى جوارهم، ويقرر المتنبي أن هذه الصفات صفات موروثة خلق بها ضبة أيستطيع مخلوق أن يغير خلق الله فيه؟ ويسأله مستنكراً: من الذى يهتم بالذم إذا كان معتاداً لهذا الذم لايستطيع أن يفعل شيئاً يغير سيرته بين الناس، ويقول له: سل قلبك أين ترك الكبر والغرور وإدعاء الشجاعة فى هذه الوقعة حتى ترك أباه للأعداء يقتلونه، فإن يخنك هذا القلب ويجبن فلطالما فعلها وخان صاحبه، ويتساءل أيضاً فى استنكار: كيف ترغب فى هذا القلب الجبان وقد عرفت مدى رعبه عند المواقف الجادة التى تحتاج إلى حسم.

---

(١) العنان. سير اللجام، الجرداء من الخيل: قصيرة الشعر، الشطبة: الطويلة

وضبة على جبنه هذا لايزيد على كونه ذبابة نفته عن الرجال المذبة التى تنفى الذباب، بيد أنه إذا كان آمنا من أعدائه حمل الرمح والحربة وادعى الشجاعة وتمنى أن يكون بكفه عنان فرس عظيم طويل قوي سريع.

وأخيراً يقول له لاتشتق إلى المعالى فإنها بالنسبة لمثلك أرض غريبة لم تطأها قدماك قبلاً، وإذا آنستك الأفعال الدنيئة فلا عجب فى ذلك فإنها لك تنتسب.

وفى القصيدة أبيات كثيرة يتعرض فيها المتنبى لأم ضبة ويرميها بأفحش التهم ولم نستطع روايتها لما فيها من الألفاظ الخارجة والصور المكشوفة.

وكان لأم ضبة أخ يسمى «فاتك بن أبى جهل الأسدى» فلما بلغته القصيدة أخذ الغضب منه كل مأخذ وأضمر السوء لأبى الطيب، وكان أبو الطيب قد مر بأبى نصر محمد الحلبى فأطلعه على حقيقة مامر وماينويه فاتك من الشر ونصحه بأن يصحب معه من يستأنس به فى الطريق فلم يزدد إلا شقة وعناداً، وأبى أن يصحب معه أحداً قائلاً: أنا والجراز فى عنقى - يقصد سيفه - فما بى حاجة إلى مؤنس. ثم قال: والله لاأرضى أن يتحدث الناس بأنى سرت فى خفارة غير سيفى، فحذره أبو النصر كثيراً فما كان منه إلا أن أجاب: أبنجو الطير تخوفنى، ومن عبيد العصا تخاف علىّ؟ والله لو أن مخصرتى هذه ملقاة على شاطىء الفرات وبنو أسد معطشون لخمس، وقد نظروا الماء كبطون الحيات، ماجسر لهم خف ولاظلف أن يرده، معاذ الله أن أشغل فكرى بهم لحظة عين، فقال له أبو النصر: قل إن شاء الله. فقال: هى كلمة مقولة لاترفع مقضياً ولا تستجلب آتياً.

ثم ركب المتنبى وسار فلقيه فاتك فى الطريق، فأراد المتنبى أن ينجو بنفسه، فقال له غلامه: ألست القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني		والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فثبت المتنبى حتى قتله فاتك وقتل ابنه محسد وغلامه.

هكذا كانت نهاية الرجل الأسطورة الذى ملأ شعره الدنيا وشغلت نفسه الكريمة الأبية الطموحة رجال عصره ورجال كل عصر.

وهكذا توقف القلب العربى الذى كان ممتلئاً حباً للعرب وغيرة عليهم بينما بقى شعره العربى حياً نابضاً، فكان خير ماوصل إلينا من عصر الدويلات.



أبو نُخَيْلة

مدح أبو نخيلة الخلفاء، ولم ينقطع لمدح خليفة بعينه، وإنما مدح كل من آلت إليه الخلافة، فهو إذن شاعر المنصب لاشاعر الشخصية.

ويكون أمراً طبيعياً أن نتوقع أن يمدح أبو نخيلة بنى أمية حينما كان الأمر بيدهم كما نتوقع أن يمدح بنى العباس حينما يؤول إليهم الأمر ولامانع من إرضائهم والإعتذار إليهم بهجاء بنى أمية.

إذن هو يقصد فى مدحه كرسى الخلافة لا الجالس عليه، يؤكد ذلك أنه وفد على هشام بن عبد الملك وهو لايعرف عن أخلاقه شيئاً، ومعرفة أخلاق الخليفة من حلم أو بطش، وسخاء أو شح، وإكبار للشعراء أو إصغار لهم، أمر لازم لكل من يفد عليهم لاسيما الشعراء الذين يستطيعون من خلال ذلك أن يجعلوا شعرهم مناسباً لمقتضى الحال، كان على أبى نخيلة إذن أن يسأل عن أخلاق هذا الخليفة الذى يرجو المثول بين يديه ويطمع فى عطاياه، فقصد رجلاً من المقربين للخليفة وسأله عن ذلك، فأجابه الرجل بأن هشاماً شديد البأس، وإذا مدح وخلط مدحه بطلب حرم الطالب، وطلب من أبى نخيلة أن يخلص المدح ولايقرنه بطلب، وضرب له موعداً يدخله فيه على الخليفة، فلما حان الموعد دخلا معاً، فسمع شاعراً ينشده قصيدة يمدحه ويكثر المسألة ويلحف فيها حتى بدا فى وجه هشام الغضب والكراهة، فاستأذن أبو نخيلة وقال:

لما أتتنى بغية كالشهد ... والعسل الممزوج بعد الوقد[1]

يابردها للمشتف بالبرد ... رعت من الجمال مسمغد[2]

---

(١) بغية: مطلب ، الوقد: حر الظمأ

(٢) المسمغد: الطويل القوى

وقلت للعيسى اعتلى وجدى | فهى تخد أبرح التخدى[1]
كم قد تعسفت بها من نجد | ومجرهد بعد مجرهد[2]
إلى أمير المؤمنين المجدى | رب معد وسوى معد[3]
فى وجهه بدر بدا بالسعد | أنت الهمام القرم عند الجد[4]

فلما انتهى من قصيدته نظر إلى وجه هشام فرآه منطلقاً فهمّ أن يسأله فتذكر قول صاحبه فسكت وخرج، وبعد أيام أتته جائزة هشام، فدخل عليه بعد ذلك ومدحه فمنحه هشام ثياباً من ثيابه الخاصة وصار من المقربين إليه.

والغريب أن أبا نخيلة غيَّر هذه القصيدة وجعلها فى مدح الخليفة أبى العباس السفاح وهو عباسى وذلك بعد أن زال ملك بنى أمية وحل محله ملك بنى العباس.

لما تغيرت الأمور وأصبحت فى يد العباسيين كان على أبى نخيلة أن يطرق بابهم ويمدحهم، فسكوته عن مدحهم وقد مدح بنى أمية – أو بنى مروان بالتحديد – يعتبر هجاء لهم، وتتحول القضية من مجرد شاعر مداح يقول شعره لكل من يملك القدرة على العطاء إلى قضية ولاء سياسى لبنى أمية، وأبو نخيلة برىء من الثانية كما قلنا.

ولكن كيف يجرؤ أبو نخيلة فى الدخول على أبى العباس السفاح وقد عرف انقطاعه لبنى أمية وكثرة مديحهم؟؟ لقد حُلّت هذه المشكلة أمام أبى نخيلة بأن صفح أبو العباس

---

(١) العيسى: الجمال، تخدى: تسرع

(٢) تعسف: تخبط وضل، مجرهد: وعر

(٣) المجدى: المعطى

(٤) القرم: السيد

عـمن هم أعظم جرمـاً منه، فلمـا دخل عليه (سـلم عليه ودعـا له وأثنى عليـه واستـأذنه فى الإنشـاد، فقـال له: ومن أنت؟ قال: عـبـدك ياأميـر المؤمنين أبو نخـيلة، فقـال: لاحيـاك الله ولاقرب دارك يانضو السوء! ألست القائل فى مسلمة بن عبد الملك بالأمس:

أمـسلم يامن سـاد كل خليـفـة ويافـارس الـهيـجـا وياقـمـر الأرض

والله لولا أنى قـد أمنت نظراءك لما ارتد إليك طرفـك حتى أخـضبـك بدمك، فقـال أبو نخيلة:

كنـا أناسـاً نرهـب الأمـلاكـا إذا ركـبـوا الأعناق والأوراكـا

قـد ارتجـينا زمنـا أباكـا ثم ارتجـينا بـعـده أخـاكـا

ثـم ارتجـينـا بعـده إياكـا وكـان مـاقلت لمن سـواكـا

زوراً فقـد كفـر هـذا ذاكـا

فتبسـم أبو العباس وقال له: أنت شـاعر، وطالب خير، ومازال الناس يمدحون الملوك فى دولهـم، والتـوبة تكفـر الخطيئـة، والظـفـر يزيل الحـقـد، وقـد عـفـونـا عنك واسـتـأنفنا الصـنيعة لك، وأنت الآن شاعرنا، فاتسـم بذلك ليزول عنك ميسم بنى مروان، فقد كفر هذا ذاك كما قلت[1].

وهكذا نرى أبا نخـيلة يدور بمدحـه على الخلفـاء كدورة الزمن عليـهم، وكـأن قصـائده

(١) الأغانى جـ٢٣ صـ ٨١١٩

معلقة على كرسى الخلافة يتناولها الجالس عليه بغض النظر عن شخصه وسلوكه. ويبدو أن أبا نخيلة قد أضناه البحث عن عذر يقدمه للعباس عن مدح بنى مروان وكان العذر هو خوفه منهم خاصة ومن الملوك عامة، ثم هو يعتبر قوله فيهم خطيئة لايمحوها إلا مدح بنى العباس، ومن مدائحه لبنى العباس والتى يهجو فيها بنى مروان قوله:

حتى إذا ماالأوصياء عسكروا	وقام من تبر النبى جوهر
ومن بنى العباس نبع أصفر	ينميه فرع طيب وعنصر
أقبل فى الناس الهوى المشهّر	وصاح في الليل نهار أنور[1]
أنا الذى لو قيل إنى أشعر	جلى الضباب الرجز المخبر[2]
لما مضت لي أشهر وأشهر	قلت لنفسٍ تزدهي فتصبر[3]
لايستخفنك ركب يصدر	لامنجد يمضي ولامغور[4]
وخالفى الأبناء فهى المخسر	أو يسمع الخليفة المطهر
منى فإنى كل جنح أحضر	وإن بالأباء غيث يهمر[5]
والغيث يرجي والديار تنضر	ماكان إلا أن أتاها العسكر
حتى زهاها مسجد ومنبر	لم يبق من مروان عين تنظر[6]
لاغائب ولاالناس حُضّر	هيهات أودى المقعم المعقر[7]

---

(١) المشهر: المعروف (٢) أشعر: أقول الشعر، الرجز: بحر من بحور الشعر وعليه يزن أبو نخيلة شعره

(٣) تردهي: تستخف (٤) يصدر: يرجع، المنجد: الذى يسير فى النجد وهو المكان المرتفع، المغور: الذى يسير فى الغور وهو المكان المنخفض (٥) الجنح: الناحية

(٦) مروان: آخر ملوك بنى أمية (٧) المقعم: المقتول، المعقر: المثخن جراحاً

وأمســت الأنبــار داراً تعمــر　　　وخــربت مــن الشــآم أدور[1]

أيــن أبــو الورد وابــن كــوثــر　　　وأين مــروان وأيـن الأشــقـر

ويبدو أن سلوك أبى نخيلة الشعرى كان منبوذاً لمعرفة الناس بتاريخه مع بنى مروان وقد أنكره اسحاق بن مسلم الذى كان جالساً عند الخليفة أبى العباس بعد أن سمع هذه القصيدة وقال: «هؤلاء كلهم فى حر أمك أبا نخيلة، فأنكر الخليفة عليه ذلك، فقال: إنى والله ياأمير المؤمنين قد سمعت منه فيكم شراً من هذا فى مجالس بنى مروان، ومـاله عهد، ولاهو بوفى ولاكريم، فبان ذلك فى وجه أبى العباس، وقال له قولاً ضعيفاً: إن التوبة تغسل الحوبة، والحسنات يذهبن السيئات، وهذا شاعر بنى هاشم وقام فدخل وانصرف الناس ولم يعط أبا نخيلة شيئاً»[2].

أبو نخيلة إذن شخصية شعرية مهتزة ومهيأة لأن يصيبها من جراء ذلك شر عظيم، ذلك لأنه لايقدر للأمور عواقبها الصحيحة، فهو لايعرف مقابلاً للقصيدة إلا العطاء، ولايتوقع رد الفعل الطبيعى حينما يتجاوز شعره حدود المدح وطلب العطاء إلى المناداة بخلع ولى عهد وإقرار البيعة لغيره، وهو فى ذلك يجازف مجازفة عظيمة ويغامر بحياته فى مقابل بعض الدراهم وإن كثرت.

حينما علم أبو نخيلة بأن أبا جعفر المنصور يريد تولية المهدى العهد بدلاً من عيسى بن موسى بن أخيه، وجدها أبو نخيلة فرصة للتقرب من أبى جعفر من خلال قصيدة يؤيد به

---

(١) أدور: جمع دار

(٢) الأغانى ص٨١٣٩

رأيه ويشيعه بين الناس ويطالب بخلع عيسى بن موسى وبالبيعة للمهدى، فقال:

إلى أمـــيـــر المؤمنين فـــاعـــمـــدى   إلـى الذى ينـدى ولاينـدى نـدى(١)

ســيــرى إلى بـحـر الـبـحـار المزبد   إلـى الذى إن نفـدت لـم ينفـد

أو ثمدت أشراعها لم يثمد(٢)

لـيـس ولـى عـهـدنا بالأســعـد   عـيـسى فـزحلـقـهـا إلـى مـحـمـد

من عند عـيـسى مـعـهـداً عن مـعـهـد   حـتى تـؤدى مـن يـدٍ إلى يـدِ

فـقـد رضـيـنا بالـغـلام الأمـرد   وقـد فـرغنا غـيـر أن لـم نشـهـد(٣)

وغـيـر أن العـقـد لـم يؤكـد   فلو سـمـعنا قـولك امـدد أمـددِ

كـانت لنا كـدعـقـة الـورد الصـدى   فناد للبـيـعـة جـمـعـاً نحـشـد

فى يـومـنـا الحـاضـر هـذا أو غـد   واصنع كـمـا شـئـت وزده يزدد

ورده منـك رداءً يرتـد   فـهـو رداء السـابـق المقـلد

وقد أشاع أبو نخيلة هذه القصيدة حتى (رواهـا الخدم والخاصة وتناشدها العامة، فبلغت المنصور، فدعا به، وعيسى بن موسى جالس عن يمينه فأنشده إياها وأنصت له حتى سمعها عن آخرها.

---

(١) ينـدى: يجود

(٢) ثمدت أشراعها: جف ماؤها

(٣) الأمرد: الصغير الذى لم ينبت له لحية

قال أبو نيـخلة: فجعلت أرى فـيه السرور ثم قـال لعيسى بن مـوسى: ولئن كان هذا عن رأيك لقد سررت عمك، وبلغت من مرضاته أقصى مـايبلغه الولد البار السار، فقال عيسى: «لقد ضللت إذاً وماأنا من المهتدين»[1].)[2]

هكذا خلع عيسى بن موسى وعقدت البيعـة للمهدى بولاية العهد، وكان على عيسى أن ينتقم من ذلك الشاعر الذى تسببت قصيدته فى ضياع الخلافة التى عاش عمره ينتظرها.

وقد اشتد عيسى فى طلب أبى نخيلة حتى فر إلى خراسان، فأرسل خلفه مولى له يسمى قطريا ومعه عدد من الرجال فلحقوه فى طريقه إلى خراسـان، فأخذه قطرى وكتفه وأضجعه وذبحه وسلخ وجهه وألقى جسمه إلى النسور ولم يبرح مكانه حتى لم يبق منه إلا عظامه.

(١) سورة الأنعام آية ٥٦

(٢) الأغانى ص٨١٤٣

مزاحم بن عمرو

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه[1]، خير له من أن يمتلىء شعراً»[2]، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن فهم هذا الحديث على أنه ذم للشعر والشعراء، وتحذير للناس من قول الشعر، فهم مجانب للصواب إلى حد بعيد فالنبى صلى الله عليه وسلم كان محباً للشعر يستنشده أصحابه فينشدونه، فيعلق عليه ويستحسنه، وقد كان يحب أن يسمع شعر أمية بن أبى الصلت لما فيه من حكمة ونظرات دينية صائبة على الرغم من أنه لم يدرك الإسلام، كما كان صلى الله عليه وسلم، يتأثر بالشعر المعبر عن مشاعر إنسانية مهذبة وعواطف راقية سامية، فكان كثير الاستماع لشعر الخنساء الذى رثت به أخاها صخراً، ويستزيدها منه، وليس أدل على إعزاز الرسول للشعر واحتفائه به من وجود حسان بن ثابت المشهور بشاعر الرسول، وقد بنى له الرسول صلى الله عليه وسلم منبراً فى المسجد لينشد عليه شعره.

الحديث إذن ينصرف إلى شعر معين، وليس إلى الشعر بعامه، ينصرف إلى الشعر المثير للضغائن والأحقاد، الذى تدور موضوعاته حول النزاعات القبلية أو نهش الأعراض.

ومزاحم بن عمرو رجل كان امتلاء جوفه قيحاً حتى يريه خيراً له من أن يمتلىء شعراً، فقد تسبب شعره فى قتله، ثم قتل امرأة كان يهواها وابنتها وزوجها الذى قتله فقتل ثأراً له.

كان مزاحم يهوى امرأة تسمى «حماء»، وكانت زوجة لعبد الله بن عبيد الله وكنيته ابن الدمينة، وكان مزاحم يأتيها ويحدثها مزدرياً زوجها وقومها، غير عابىء بهم، وغير عابىء

---

(1) يريه: يفسده

(2) المجازات النبوة للشريف الرضى ص٩٠

بسمعة المرأة التى يهواها والتى فضحها فى قصيدة مفحشة أدت إلى قتله وقتل المرأة، فقد اشتهر أمره معها ومنعه زوجها من إتيانها واشتد عليها، فلم يجد مزاحم رداً سوى هذه القصيدة التى يقول فيها:

يابن الدمينة والأخبار يرفعها ... وخذ النجائب والمحقور يخفيها

يابن الدمينة إن تغضب لما فعلت ... فطال خزيك أو تغضب مواليها

أو تبغضونى فكم من طعنة نفذت ... يغذو خلال اختلاج الجوف غاذيها(1)

جاهدت فيها لكم.. إنى لكم أبداً ... أبغى معايبكم عمداً فآتيها

فذاك عندى لكم حتى تغيبنى ... غبراء مظلمة هارٍ نواحيها

أغشى نساء بنى تيم إذا هجعت ... عنى العيون ولاأبغى مقاريها(2)

كم كاعب من بنى تيم قعدت لها ... وعانسى حين ذاق النوم حاميها

كقعدة الأعسر العلفوف منتجياً ... مُتينة من متين النبل ينجيها(3)

وشهقة تعتريها عند لذتها ... وقول ركبتها قض حين تثنيها(4)

علامة كية مابين عانتها ... وبين سبتها لاشل كاويها(5)

وتعدل الأير إن زاغت فتبعثه ... حين يقيم برفق صدره فيها

---

(1) يغذو: يسيل دماً

(2) مقاريها: المقارى جمع مقراة وهى القصعة يقرى فيها الضيف

(3) الأعسر: الذى يعمل بيساره، العلفوف: الضخم، منتجياً: أى جالس على مكان عالٍ من الأرض، المتينة: تصغير متن وهو الوتر، ينجيها: يشدها

(4) قض: صوت يحاكى صوت ركبتها حين تثنيها

(5) سبتها: دبرها

بين الصقوقين فى مستهدف ومد ذى حرة ذاق طعم الموت صاليها[1]

ماذا ترى ابن عبيد الله فى امرأة ليست بمحصنة غدراً أجاريها

أيام أنت طريد لاتقاربها وصادف القوس فى الغرات باريها

نرى عجوز بنى تيم ملفعة شمطاً عوارضها ربداً دواهيها[2]

إذ تجعل الدفنس الورهاء عذرتها قشارة من أديم ثم تغريها[3]

حتى يظل هدان القوم يحسبها بكراً وقبل هوى فى الدار هاويها[4]

هذه هى القصيدة التى ملأ بها مزاحم الدنيا، وهي قصيدة لايكتبها عاشق فى أى حال، وإنما الذى يقبل على كتابة قصيدة كهذه، لايكون إلا رجلاً زنديقاً أهوج غير بصير بالأمور، ولايضعها فى مواضعها الصحيحة، لقد جعل من الشعر وهو فن الذوق والجمال والتعبير عن المشاعر الإنسانية الراقية، جعل منه وسيلة رخيصة لتصوير سلوكه المخل تجاه امرأة ساقطة.

(لما بلغ ابن الدمينة شعر مزاحم أتى امرأته، فقال لها: لقد قال فيك هذا الرجل ماقال، وقد بلغك، قالت: والله مارأى ذلك منى قط، قال: فمن له العلامات؟، قالت: وصفهن له النساء، قال: هيهات والله أن يكون ذلك كذلك، ثم أمسك مدة، وصبر حتى ظن أن مزاحما قد نسى القصة، ثم أعاد عليها القول، وأعادت الحلف أن ذلك وصفه له النساء، فقال لها: والله لئن لم تمكنينى منه لأقتلنك، فعلمت أنه سيفعل ذلك، فبعثت إليه وواعدته ليلاً، وقعد

---

(١) الصقوق: الصخرة الملساء المرتفعة، الومد: الشديد الحرارة، الحرة: الحر

(٢) عوارضها: جانبا وجهها

(٣) الدفنس: المرأة الرعناء، الورهاء: الحمقاء، تغريها: تلصقها

(٤) الهدان: الأحمق

له ابن الدمينة وصاحب له، فجاءها للموعد، فجعل يكلمها وهى مكانها، فلم تكلمه، فقال لها: ياحماء ماهذا الجفاء الليلة؟ فقال له ابن الدمينة بصوت ضعيف: ادخل، فدخل، فأهوى بيده ليضعها عليها، فوضعها على ابن الدمينة، فوثب عليه هو وصاحبه وقد جعل له حصى فى ثوب، فضرب بها كبده حتى قتله، وأخرجه فطرحه ميتاً)[1].

إن موقف ابن الدمينة يؤكد صحة العلامات التى وردت فى القصيدة، وهى علامات لاتعرفها المرأة فى المرأة، ولكن يعرفها الرجل فى وضع خاص، لايكون إلا بين رجل وامرأة، فحماء إذن امرأة ساقطة، أما موقف ابن الدمينة فلا يخلو من سلبية ومن جبن يدلان على قصور فى تقدير قيمة العرض والشرف، فلا نتخيل أن رجلاً عربياً يسمع شعراً كهذا فى امرأته فلا يكون منه إلا أن يستجوبها ثم يصبر مدة حتى ينسى غريمه القصة، إن الفطرة السليمة تبادر بهذا السؤال: كيف كان حاله خلال هذه المدة التى صبرها؟ ! وماكانت حاجته إليها؟ ألم يكن الأجدر به أن يخرج على مزاحم شاهراً سيف، فيقتله ويثأر لعرضه المنتهك وكرامته الملوثة؟، إن الطريق التى اختارها لقتل غريمه لاتكون إلا من سارق أو قاطع طريق، أما الثأر للعرض فلا يكون إلا كما قال المتنبى:

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

وأى صاحب هذا الذى اصطفاه لمساعدته فى مهمته العظمى؟!، لايمكن أن نتصور أن هذا الصاحب كان موجوداً بالصدفة، وإنما استدعاه ابن الدمينة ليكون محمساً ومشجعاً

---

(١) الأغانى جـ١٨ ص٦٣٧٣ ومابعدها

ومعيناً إذا لزم الأمر، وقد لزم الأمر فعلاً، فلم يقم ابن الدمينة وحده بقتل مزاحم، وإنما وثب عليه هو وصاحبه.

ولعل ابن الدمينة قد أدرك حرج موقفه، وأدرك أن العرب لائموه لامحالة فقد استتر فيما لايصح الاستتار فيه، واستخفى حيث لايجب الاستخفاء، لذلك نراه يحاول إسعاف سمعته بقصيدة يهجو فيها سلول - قبيلة مزاحم - ويعرض بنسائهم، يقول ابن الدمينة:

قالوا هجتك سلول اللؤم مخفية	فاليوم أهجو سلولاً لاأخافيها
قالوا هجاك سلولى فقلت لهم	قد أنصف الصخرة الصماء راميها
رجالهم شر من يمشى ونسوتهم	شر البرية واست ذل حاميها
يحككن بالصخر أستاها بها نقب	كما يحك نقاب الجرب طاليها[1]

وقال أيضاً واصفاً دخول مزاحم عليه:

لك الخير إن واعدت حماء فالقها	نهاراً ولاتدلج إذا الليل أظلما
فإنك لاتدرى أبيضاء طفلة	تعانق أم ليثاً من القوم قشعما[2]
فلما سرى عن ساعدىّ ولحيتى	وأدرك أنى لست حماء جمجما[3]

وحان دور حماء، وقد وضع ابن الدمينة على وجهها وسادة من قطيفة وجلس عليها حتى قتلها، فلما ماتت قال:

---

(١) النقب: الجرب

(٢) القشعم: العجوز

(٣) جمجم الرجل: أى لم يستطع الكلام

إذا قعدت على عرنين جارية فوق القطيفة فادعوا لى بحفار

وبينما هو فى حالة هستيرية جمعت بين ألم الخيانة ولذة الانتقام فإذا بطفلة له من حماء تبكى، فضرب بها الأرض فقتلها ثم قال: لاتتخذن من كلب سوء جرواً.

ولم يكن للأمر أن ينتهى بعد كل هذا، فالقبيلتان - سلول وخثعم - قريبتا العهد بالجاهلية، ولايمكن لإحداهما السكوت على قاتل مادام حيا، ومادام ابن الدمينة حيا فلابد لسلول من قتله.

كانت والدة مزاحم من خثعم - قوم ابن الدمينة - ولكن المقتول ابنها ولابد من الثأر له أيا كان قاتله، ولاأظن أن العصبية القبلية كانت تتراجع أو تضعف إلا فى موقف كهذا، وكانت المرأة شاعرة، فقال ترثى ابنها وتحرض مصعباً وجناحاً أخويه:

بأهلى ومالى بل بجل عشيرتى قتيل بنى تيم بغير سلاحِ(١)

فهلا قتلتم بالسلاح ابن اختكم فتظهر فيه للشهور جراحِ

فلا تطمعوا فى الصلح مادمت حية ومادام حياً مصعب وجناح

ألم تعلموا أن الدوائر بيننا تدور وأن الطالبين شحاح

وأكثرت أم مزاحم من تحريض مصعب على ابن الدمينة، وقالت له: (اقتل ابن الدمينة، فإنه قتل أخاك وهجا قومك، وذم أختك، وقد كنت أعذرك قبل الآن لأنك كنت صغيراً وقد

---

(١) فى البيت عيب من عيوب القافية يسمى «الإقواء» وهو اختلاف حركة الحرف الأخير فى البيت عن بقية أبيات القصيدة

كبرت الآن، فلما أكثرت عليه خرج من عندها، وبصر بابن الدمينة واقفاً ينشد الناس، فغدا إلى جزار فأخذ شفرته وعدا على ابن الدمينة فجرحه جراحتين، فقيل: إنه مات لوقته، وقيل: بل سلم تلك ومربه مصعب بعد ذلك وهو في سوق العبلاء ينشد، فعلاه بسيفه حتى قتله)[1].

ألم يصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه، خير من أن يمتلىء شعراً».

---

(١) الأغاني ص٦٣٧٩

طرفة بن العبد

فى الجزيرة العربية كان الشعر طبيعة فى الناس إبداعاً وفهماً وتذوقاً وحفظاً ورواية، ويندر أن يوجد عربى واحد فى هذا العصر لم يكن له شعر، قليل أو كثير، ردىء أو جيد.

ويدخل هذا الكلام مجال التصديق حينما نشبه الشعر في الجاهلية وفى الجزيرة العربية بالمرح والفكاهة وخفة الظل فى مصر، فأهل مصر يتميزون بقدرتهم على ابتكار الفكاهة وخلق الأجواء المرحة، وهم فى ذلك - لاشك - يتفاوتون، لكن تجمعهم هذه القدرة.

ليس غريباً إذن أن يطلع علينا تاريخ الأدب الجاهلى بشاعر شاب يقتحم علينا العقد الأخير من القرن العشرين، بقصيدة كتبت بماء الذهب فى نسيج من صنع أقباط مصر وعلقت بأستار الكعبة، فكانت واحدة من المعلقات التى تعتبر أنفس ماأبدعه العقل فى تلك الفترة التى سبقت ظهور الإسلام.

هذا الشاعر يسمى «عمرو بن العبد» و«طرفة» لقبه، وعلى الرغم من حداثة سنه - فقد قتل وهو فى السادسة والعشرين - إلا أنه استطاع أن يشمخ بقامته أمام كبار شعراء عصره فتفوق عليهم بحكمة كانت وليدة ظروفه الخاصة التى ملأته مرارة وأسى، فقد مات أبوه وتركه غلاماً صغيراً، وأكل أعمامه ميراثه عن أبيه، فنشأ فقيراً مع حبه الشديد للإنفاق على المتع والملذات حتى ضاع ماله فاضطر إلى أن تمتد يده لمال أقاربه فنبذوه وطردوه.

ولو لم يحمل التاريخ لنا وصفه بالفقر لعرفنا ذلك من شعره، فله شعر كثير يذم فيه الفقر ويصف حال الفقير، وقد تخلى الناس عنه وضاقت به الدنيا وأصبح يتخبط فى أمور حياته،

وقد نفر منه أصدقاؤه فإن غاب عنهم لم يسألوا عنه ولم يشفقوا عليه، وإن آب لم يفرحوا برجوعه أو يحفلوا به، يقول:

إذا قل مال المرء قل بهاؤه ... وضاقت عليه أرضه وسماؤه

وأصبح لايدرى وإن كان حازماً ... أقدامه خير له أم وراؤه

ولم يمشى فى وجهٍ من الأرض واسع ... من الناس إلا ضاق عنه فضاؤه

فإن غاب لم يشفق عليه صديقه ... وإن آب لم يفرح به أصفياؤه

وإن مات لم يفقد ولى ذهابه ... وإن عاش لم يسرر صديقاً لقاؤه

إذا تم عقل المرء تمت أموره ... وتمت أياديه وطاب ثناؤه

وإن لم يكن عقل تبين نقصه ... وإن كان مفضالاً كثيراً عطاؤه

إذا قل مال المرء قل صديقه ... ولم يَجْلُ فى قلب الخليل إخاؤه(١)

إذا قل مال المرء لم يرض عقله ... بنوه ولم يغضب له أولياؤه

وأصبح مردوداً عليه كلامه ... وإن كان منطيقاً قليلاً خطاؤه(٢)

هذه الأبيات بما تحتوى عليه من مرارة وأسى لايمكن أن تصدر إلا عن رجل فقير، أراه الفقر ضيق الأرض والسماء وخيانة الصديق وعدم مبالاة الأحباب بذهابه أو رجوعه، حتى

---

(١) يجل: يظهر

(٢) منطقياً: بليغاً

أبناؤه ربما لايرضون به أباً وأقرباؤه لايغضبون لمكروه أصابه، وأصبح كلامه مردوداً غير مسموع على الرغم من بلاغته وفطنة قائله.

ويبدو أن الفقر كان الهم الأول الذى يعانيه طرفة، فكان يتمنى أن يكون واحداً من الأغنياء الذين يتمتعون بالمال والولد، يقول:

فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد ... ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد[1]

فأصبحت ذا مال كثير وعادنى ... بنون كرام سادة لمسود[2]

(قال أبو عبيدة: فقال عمرو بن مرثد لما سمع قول طرفة: ابعثوا إلى طرفة فليأتنى، فأتاه فقال له: أما الولد فالله يعطيكه، وأما المال فلا تبرح حتى تكون أوسطنا مالاً، ثم أمر بنيه وهم سبعة أن يعطوه عشراً عشراً من الأبل، حتى أعطاه بنو عمرو سبعين بعيراً، ثم قال لثلاثة من بنى أبنائه أعطوه عشراً عشراً فأعطوه ثلاثين، فبقى الأبناء يفخر أبناؤهم الذين أعطوا طرفه على سائر الأبناء الذين لم يعطوه، يقولون: جعلنا جدنا مثل بنيه)[3].

ومن شعر طرفة نلحظ علاقته المتوترة بابن عمه «مالك» الذى كان كبير القوم، والذى كان دائم اللوم على طرفة وسلوكه، بينما يسعى لاسترضائه، حتى يئس منه وعده من الأموات.

---

(١) قيس بن خالد وعمرو بن مرثد رجلان غنيان من قوم طرفة

(٢) عادنى: أتانى

(٣) ديوان طرفة بن العبد تحقيق يوسف الأعلم الشنتمري ص٣٧

يقول طرفة:

فمالى أرانى وابن عمى مالكاً ... متى أدن منه ينأ عنى ويبعد

يلوم ومـا أدرى على مايلومنى ... كما لامنى فى الحى قرط بن أعبد[1]

وأيأسنى من كل خيرٍ طلبته ... كأنا وضعنا على رمس ملحد[2]

فلو كان مولاى امرأ هو غيره ... لفرج كربى أو لأنظرنى غدى

ولكن مولاى امرؤ هو خانقى ... على الشكر والتسآل أو أنا مفتدِ

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة ... على المرء مَن وقع الحسام المهند[3]

هكذا كان طرفة كثيراً مايحاول التقرب إلى ابن عمه الذى كان دائماً يقابل اقترابه بالابتعاد، ويبدو أن لوم طرفة لم يكن مقصورا على ابن عمه مالك، وإنما كان لائموه كثيرين منهم قرط بن أعبد الذى ذكره فى قصيده.

وبعد كل محاولات التقرب والمصالحة بين طرفة ومالك، ييأس طرفة ويترك بن عمه تركاً نهائياً لارجوع فيه، وكأنه قد مات ودفن، ثم يقدم تعليلاً لهذا الاعتقاد، فلو كان ابن عمه رجلاً غير مالك لفرج كربه وأدى عنه دينه أو على الأقل أنظره إلى وقت قريب يكون فيه قادراً على أداء الدين، لكنه شدد عليه الخناق حتى اضطره إلى مدح الناس وشكرهم وسؤالهم العطايا، ثم يقرر حقيقة تشع مرارة وأسى فظلم ذوى القربى أشد حرقة وأوقع ألماً

---

(١) قرط بن أعبد: رجل من حى طرفة

(٢) رمس ملحد: يعنى القبر

(٣) مضاضة: حرقة، الحسام المهند: السيف المصنوع فى الهند

من السيف الحاد البتار، حيث لايتوقع الإنسان هذا الظلم فلا يتوقى منه، كما لايكون جاداً في الانتصار لنفسه، فإذا جد وانتصر فإنه لايكون سعيداً بهذا الانتصار الذى يقع على أقربائه الذين يحبهم ويتمنى لو بادلوه حباً بحب.

الشعر إذن كان الناى الذى ينفث فيه طرفه زفرات الأسى التى تتوهج فى صدره، فتخرج لحوناً مطربة عذبة قوية التأثير.

وكثيرا ماكان شعره يشغله عن رعى إبله مع أخيه معبد الذى كان يلومه على ترك إبله وماله إلى الشعر، وكان يقول له: لم لاتسرح فى إبلك كما كنت تفعل، أترى أن شعرك يردها إن أخذت؟ فقال طرفة: فإنى لاأخرج فيها أبداً حتى تعلم أن شعرى يردها. فتركها فأخذها ناس من مضر فرحل طرفة عن اليمامة وادعى جوار عمرو بن هند ملك الحيرة.

وقد وفد على عمرو بن هند مع خاله المتلمس، (فنادمهما الملك وأكرمهما وبقيا عنده زماناً، ويقولون: إن طرفة كان غلاماً معجباً، تائهاً، فبينما كان يشرب يوماً بين يدى الملك إذ أشرفت عليه أخته فرآها طرفة، فقال فيها بيتين من الشعر، فنظر إليه عمرو نظرة كادت تقتلعه من مجلسه، وكان عمرو لايبتسم ولايضحك، وكانت العرب تسميه «مضرط الحجارة» لشدته، وكانوا يهابونه هيبة شديدة، فقال المتلمس لطرفة حين قاموا: «ياطرفة إنى أخاف عليك من نظرته إليك»، فلم يكترث بكلامه ثم جعلهما عمرو بن هند من صحابة أخيه قابوس، وكان يرشحه للملك، وأمرهما بلزومه، وكان قابوس شاباً يعجبه الزهو، وكان يركب يوماً فى الصيد، فيركض يتصيد، وهما معه يركضان، حتى يرجعا عشية ولقد لعبا. فيكون قابوس من الغد للشراب، فيقفان فى باب سرادقه إلى العشى، وكان قابوس

يوماً على الشراب، فوقفا ببابه النهار كله، ولم يصلا إليه، فضجر طرفة وهجا عمراً وأخاه)[1].

لكن الهجاء لم يصل إلى أسماع عمرو بن هند إلا عن طريق رجل يسمى «عبد عمرو بن بشر» الذى هجاه طرفة أيضاً، فاشتد حنقه عليه ووشى به عند عمرو بن هند، وكان مما قاله فى هجاء عبد عمرو قوله:

ولاخير فيه غيرر أن له غنى ... وأن له كشحاً إذا قام أهضما[2]

كأن السلاح فوق شعبة بانه ... ترى نفخاً ورد الأسرة أسحما[3]

وطرفة فى هذين البيتين ينزع كل الفضائل عن عبد عمرو ولايبقى له إلا غناه ووصفه بالصفات التى يتغزل بها فى النساء، فله خصرضامر إذا قام تثنى كأنه شجرة البان الرخوة اللينة الناعمة، والسلاح الذى يحمله يكاد يثنيه، وترى له بروزات فى جنبات جسمه وهو فى تثنى لحمه يكون مثيراً.

وكان عبد عمرو بن بشر مع عمرو بن هند فى رحلة صيد، وقد جلسوا ليأكلوا صيدهم، وجلس عبد عمرو يقدم الشواء لعمرو فأبصر خصره من تحت القميص الضيق، فقال له عمرو بن هند: ياعبد عمرو، لقد أبصر طرفه حسن كشحك، ثم تمثل حتى قال:

ولاخير فيه غير أن له غنى ... وأن له كشحا إذا قام أهضما

---

(١) ديوان طرفة تحقيق الأستاذ على الجندى نقلاً عن نصوص من العصر الجاهلى للدكتور جودة أمين ط. الفجر الجديد

(٢) الكشح: الخصر، الأهضم: الضامر

(٣) البانة: واحدة شجر البان اللين، الأسحم : الأسود

فغضب عبد عمرو مما قاله عمرو بن هند وأنف، فقال: لقد قال في الملك أقبح من هذا، قال عمرو وماالذى قال؟ فندم عبد عمرو على الذى سبق منه، وأبى أن يسمعه، فقال عمرو: أسمعنيه وطرفة آمن، فأسمعه القصيدة التى هجاه فيها)[1]. ومنها قوله:

ليت لنا مكان الملك عمرو	رغوثاً حول قبتنا تخور[2]
من الزمرات أسبل قادماها	وضرتها مركنة درور[3]
يشاركنا لنا رخلان فيها	وتعلوها الكباش فما تنور[4]
لعمرك إن قابوس بن هند	ليخلط ملكه نوك كثير[5]

فى هذه الأبيات يرى طرفة عمرو بن هند ملكاً لايصلح للملك وخير منه نعجة تخور وإن كانت قليلة الصوف فربما كان لبنها كثيراً يكفى رضيعها وحالبها، وهى لاتنفر من الكباش فقد اعتادت أن يقع عليها الذكور، ثم يذكر قابوساً أخا عمرو فيصف ملكه بالحمق والبله.

(فسكت عمرو بن هند على ذلك وقر فى نفسه، وكره أن يعجل عليه لمكان قومه، فأضرب عنه، ثم لم يزل يطلب غرته والاستمكان منه حتى أمن طرفه ولم يخفه على نفسه وظن أنه قد رضى عنه، فقدم هو والملتمس على عمرو بن هند، وكان الملتمس قد هجا عمراً متعرضاً لفضله ومعروفه، فكتب لهما إلى عامله على البحرين

---

(١) المصدر السابق ص٨٦

(٢) الرغوث: النعجة المرضع

(٣) الزمرات: القليلات الصوف، الضرة: لحم الضرع، مركنة: لها أركان وجوانب، الدرور: كثيرة در اللبن.

(٤) رخلان: مفردها رخل وهى الأنثى من أولاد الضأن، تنور: تنفر

(٥) قابوس بن هند: أخو عمرو بن هند، نوك: حمق

وهجر، وقال لهما: انطلقا إليه فاقبضا جوائزكما.

فخرجا فلما هبطا النحو قال الملتمس: ياطرفة إنك غلام حديث السن والملك من قد عرفت حقده وغدره، وكلانا قد هجاه ولست آمنا أن يكون قد أمر فينا بشر، فهلم ننظر مافى كتابنا هذا، فإن يكن أمر خير مضينا به وإن تكن الأخرى لم نهلك أنفسنا، فأبى طرفة أن يفك خاتم الملك، وعدل الملتمس إلى غلام من غلمان الحيرة عبادى، فأعطاه الصحيفة فقرأها فقال: ثكلت الملتمس أمه، فانتزع الصحيفة من الغلام واكتفى بذلك من قوله، واتبع طرفة فلم يلحق به، وألقى الصحيفة فى نهر الحير ثم خرج هارباً إلى الشام، ثم سار طرفة حتى قدم على عامل البحرين وهو بهجر فدفع إليه كتاب عمرو بن هند فقرأه، فقال: هل تعلم ماأمرت فيك؟ فقال: نعم، أمرت أن تجيزنى وتحسن إلىّ، فقال لطرفة: إن بينى وبينك خؤولة أنا راعٍ لها، فأهرب من ليلتك قبل أن تصبح ويعلم الناس بمكانك، فإنى قد أمرت بقتلك، فقال له طرفة: اشتدت عليك جائزتى فأحببت أن أهرب وأن أجعل لعمرو على سبيلاً كأنى قد أذنبت ذنباً، والله لاأفعل ذلك أبداً، فلما أصبح أمر بحبسه وتكرم عن قتله، وكتب إلى عمرو بن هند: ابعث إلى عملك غيرى فإنى غير قاتل الرجل، فبعث إليه عمرو بن هند رجلا من بنى تغلب واستعمله على البحرين، وكان رجلاً شديداً شجاعاً وأمره بقتل طرفة فقتله)[1].

---

(١) ديوان طرفة تحقيق يوسف الأعلم الشنتمرى ص٩٩

وقد رثته أخته بقولها:

عـددنا له ســتـا وعـشـرين حـجـة فلـمـا توفـاها اسـتـوى سـيـداً ضـخـمـا

فـجـعنا بـــه لما رجونا إيابـــه على خـيـر حـالٍ لاوليـداً ولاقـحـمـا[1]

وهكذا قتل طرفة الشـاعر العربى الشاب الذى استطاع أن يخلد اسمـه بشعره الذى كان الركن الندى الظليل فى حياته، يـأوى إليه هرباً من جفاف مشاعـر أهله تجاهه، وحلمه الذى يفر إليه من مرارة واقعه الملىء بالأسى.

---

(١) القحم: هو الذى يقحم نفسه فى الأمور

أعشى همدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، وكنيته «أبو المصبح»، وهمدان جده الأعلى ولقب بالأعشى لضعف بصره.

كان الأعشى فقيهاً وقارئاً للقرآن الكريم، ثم تحول إلى الشعر بعد أن رأى فى منامه أنه دخل بيتاً فيه حنطة وشعير، فقيل له خذ أيهما شئت، فأخذ الشعير، فقص رؤياه على صهره الشعبى وكان فقيهاً أيضاً، فقال له: إن صدقت رؤياك تركت القرآن وقلت الشعر، فكان كما قال.

منذ ذلك الحين أصبح الأعشى من شعراء الكوفة الفصحاء، حتى اعتبره الأصمعى من الفحول، وقد عاصر الدولة الأموية، وكان شاعراً مواكباً للأحداث منغمساً فيها، ذا موقف من الدولة وسياستها، فكان لساناً لاذعاً سليطاً عليها، يؤلب أهل الكوفة على الحجاج بن يوسف الثقفى، وذلك عندما خرج ابن الأشعث على الحجاج وحشد معه أهل الكوفة، فلم يبق أحد من وجوههم إلا خرج معه لثقل وطأة الحجاج عليهم، فكان الأعشى على رأس الجيوش فارساً، كما كان شاعراً محمساً للجنود كمن يقوم على أمر الشئون المعنوية فى الجيوش الحديثة، ولم يسلم الحجاج رغم غلظته ومحبته للدماء من هجاء الأعشى فضلاً عن أن الأعشى كان يمدح ابن الأشعث وهو أعدى أعداء الحجاج وأجرأ الخارجين عليه، وهذه وحدها كفيلة بإثارة حفيظة الحجاج ضد الأعشى وجعله من المطاردين المطلوبة دماؤهم وماأسعد الحجاج بذلك وهو الذى كان يتفاخر بحبه للقتل وإراقة الدماء. ومن هجاء الأعشى للحجاج بن يوسف الثقفى قوله:

لما سمونا للكفور الفتان ... بالسيد الغطريف[1] عبد الرحمن

(١) الغطريف: الشريف

سار بجمع كالقطا من قحطان ومن معد قد أتى ابن عدنان

أمكن ربى من ثقيف همدان يوماً إلى الليل يسلى ماكان

إن ثقيفاً منهم الكذابان كذا بها الماضى وكذاب ثان

وقوله:

يابن الأشج[1] قريع كندة لاأبالى فيك عتباً

أنت الرئيس ابن الرئيس وأنت أعلى الناس كعباً

نبئت الحجاج بن يوسف خر من زلق[2] فتبا

فانهض فديت لعله يجلو بك الرحمن كرباً

وابعث «عطية»[3] فى الخيول يكبهن عليه كباً

من هاتين المقطوعتين تتضح لنا صورة الأعشى كشاعر هجاء وتكون أكثر جلاءً فهو يهجو الذراع الباطشة للدولة الأموية وهو الحجاج وهو من هو، فكان الأولى - لو كان الأعشى شاعراً مرتزقاً - أن يمدح هذه الشخصية ذات الشأن العظيم فى الدولة ويحصل على الأموال والعطايا حيث لم تكن الدولة الأموية بالبخيلة فى هذا الشأن، وإنما كانت تصطنع الشعراء وتجندهم لخدمة دعواها، فهى حينما تشترى لسان شاعر معين فهى تشترى قبيلته كلها، فالشاعر ليس شخصاً منعزلاً عن قبيلته، وإنما هو لسان حالها أو المتحدث

---

(١) الأشج: يقصد عبد الرحمن بن أشعث

(٢) زلق: المكان الذى لايثبت عليه قدم

(٣) عطية: هو عطية بن عمرو العنبرى قائد جيوش عبد الرحمن بن الأشعث

الرسمى باسمها، وقد كان فى إمكان الأعشى أن يفعل ذلك، لكنه - فيما نعتقد - كان شاعراً ذا أيديولوجية وذا موقف محدد من هذه السياسات لذلك كان يرتزق بشعره بعيداً عن هذه المنطقة، فإذا مادخلها هو شاعر لاتنقصه النزاهة والجرأة وحرية الرأى فيمدح أعداء الحجاج ويهجو الحجاج بما يثير حفيظته، ومن مدائحه فى ابن الأشعث قوله:

كم من أبٍ لك كان يعقد تاجه ... بجبين أبلج مِقْوَلٍ صنديد

وإذا سألت المجد أين محله ... فالمجد بين محمد[1] وسعيد[2]

بين الأشج وبين قيس باذخٌ ... بخ[3] بخ لوالده وللمولود

ماقصرت بك أن تنال مدى العلا ... أخلاق مكرمة وإرث جدود

قرمٌ إذا سامى القروم ترى له ... أعراق مجد طارف[4] وتليد

وإذا دعا لعظيمة حشدت له ... همدان تحت لوائه المعهود

يمشون فى حلق الحديد كأنهم ... أسد الإباء سمعن زأر أسود

ماإن نرى قيساً يقارب قيسكم ... فى المكرمات ولاترى كسعيد

من الطبيعى إذن أن يسكن الأعشى رأس الحجاج ويقض مضجعه ويؤرقه بعد ذلك الهجاء المقذع الذى جعل أهل العراق يتجرأون على الحجاج ويخرجون لحربه، وبعد ذلك مدحه للأشعث الذى جمع القوم حوله فآزروه وناصروه وخرجوا معه لقتال

---

(١) محمد: هو أبو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

(٢) سعيد: هو ابن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وعلى ذلك يكون المجد مقصوداً به عبد الرحمن نفسه لأنه بين ابنه وأبيه

(٣) بخ: كلمة استحسان ومدح

(٤) الطارف: المستحدث والتليد عكسه

الحجاج.

يروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه «الأغانى» (لما أتى الحجاج بن يوسف الثقفى بأعشى همدان قال: الحمد لله الذى أمكن منك، ألست القائل:

لما سمونا للكفور الفتان .... الأبيات[1]

أولست القائل:

ياابن الأشج قريع كندة لاأبالى فيك عتبا

.... الأبيات[2]

كلا ياعدو الله، بل عبد الرحمن بن الأشعث هو الذى خر من زلق. فتب وحار وانكب، ومالقى ماأحب، ورفع بها صوته وأربد وجهه واهتز منكباه، فلم يبق أحد فى المجلس إلا أهمته نفسه وارتعدت فرائصه، فقال له الأعشى: بل أنا القائل أيها الأمير:

أبى الله إلا أن يتم نوره	ويطفىء نار الفاسقين فتخمدا
وينزل ذلاً بالعراق وأهله	كما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
ومالبث الحجاج أن سل سيفه	علينا فولى جمعنا وتبددا
ومازاحف الحجاج إلا رأيته	حساما ملقى للحروب معودا
فكيف رأيت الله فرّق جمعهم	ومزقهم عرض البلاد وشردا

(١ و ٢) ارجع للأبيات فى أول الفصل من هذه الدراسة

بمـا نكثـوا مـن بيعـة بعـد بيعة إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا

وماأحدثوا من بدعة وعظيمة من القول لم يصعد إلى الله مصعدا

ليهنـأ أميـر المؤمنين ظهوره على أمة كانوا بغاة وحسدا

وجدنا بنى مروان خير أئمة وأعظم هذا الخلق حلما وسؤددا

وخير قريش من قريش أرومة وأكرمهم إلا النبى محمدا

إذا ماتدبرنا عواقب أمرنا وجدنا أمير المؤمنين المسددا

سيغلب قوماً غالبوا الله جهرة وإن كايدوه كان أقوى وأكيدا

كذاك يضل الله من كان قلبه ضعيفا ومن والى النفاق وألحدا

تعطف أمير المؤمنين عليهم فقد تركوا أمر السفاهة والردى

لعلهم أن يحدثوا العام توبة وتعرف نصحاً منهمُ وتوددا

لقد شمت ياابن الأشعث العام مصرنا . فظلوا ومالاقوا من الطير أسعدا

كما شاءم الله النجير وأهله بجدك من قد كان أشقى وأنكدا

فقال من حضر من أهل الشام: فقد أحسن أيها الأمير، فخل سبيله، فقال: أتظنون أنه أراد المدح، لا والله! لكنه قال هذا أسفاً لغلبتكم إياه وأراد به أن يحرض أصحابه، ثم أقبل عليه فقال له: أظننت ياعدو الله أنك تخدعنى بهذا الشعر وتنفلت من يدى حتى تنجو! ألست القائل ويحك!

وإذا سألت: المجد أين محله ... فالمجد بين محمد وسعيد

بين الأغر وبين قيس باذخ ... بخ بخ لوالده وللمولود

والله لايبخبخ بعدها أبداً. أولست القائل:

وأصابنى قوم وكنت أصيبهم ... فاليوم أصبر للزمان وأعرف

كذبت والله، ماكنت صبورا ولاعروفاً، ثم قلت بعده:

وإذا تصبك من الحوادث نكبة ... فاصبر فكل غيابة ستكشف

أما والله لتكون نكبة لاتنكشف غيابتها عنك أبداً، ياحرسى، اضرب عنقه، فضرب عنقه، فكان أعشى همدان قتيل الحجاج أو قل قتيل شعره.

بعد ماقلناه عن نزاهة الأعشى وموقفه من الدولة الأموية يحق له علينا أن نقف وقفة مع القصيدة التى مدح بها الحجاج، فليس مما يقبله العقل أن يكون الأعشى مخلصاً على مدحة للحجاج بعد ذلك التهاجى الذى أدى إلى مقتله، ولعل الأعشى كان قد أعد هذه القصيدة تحسباً لموقف كهذا، فليس من الطبيعى أن يرتجلها فى مثل هذه الظُروف، وليست سرعة البديهة وحدها كافية لإخراج مثل هذه القصيدة وفيها مافيها من الغمز والهجاء المرتدى ثياب المدح كما سيتضح عند الوقوف على بعض معانيها، فمثلاً فى قوله:

أبى الله إلا أن يتمم نوره ... ويطفىء نار الفاسقين فتخمدا

فى هذا البيت سخرية خفية لايدركها إلا ذو بصر بالشعر ومعانيه وطرائقه، فالله سبحانه قد أتم نوره بالإسلام الذى جاء على يد رسوله صلى الله عليه وسلم، وليست البشرية فى حاجة لبنى أمية الذين اغتصبوا الخلافة وحوّلوها إلى ملك يتوارثونه، لكى يتم بهم نور الله

فى الأرض، كذلك قوله:

ومــازاحف الحــجــاج إلا رأيتـــــه حـــســامــاً مـلقى للحـــروب مـــعـــودا

فظاهر البيت يصف الحجاج بالشجاعة، لكن البيت يعرض به ويصفه بأنه فقط مجرد سيف فى يد الدولة الأموية تطعن به كيف تشاء، وقوله «ملقى» فيه مافيه من السخرية، فكأن الحجاج شىء حقير يلقى به، فإذا جاء بخير فهو للدولة وإن هلك لم تخسر الدولة بهلاكه شيئاً. كذلك قوله:

بما نكثو مـــن بيعــة بعــد بيعـــــة إذا ضـمنوها اليوم خاسـوا بهـا غـداً

إشارة إلى عدم استقرار عرش الدولة الأموية وإلى نقض الناس البيعة لهم لأنهم مغتصبو الخلافة غير مستحقيها.

ثم هو يشير بمهارة إلى أن الناس حينما يبايعو اليوم للخلافة الأموية تحت وطأة الحرب فإنهم سريعاً ماينقضون بيعتهم لأنهم غير راضين عنها.

وكذلك قوله:

ومــاأحـدثـوا من بدعـة وعظيــمــة من القــول لم تصــعــد إلى الله مــصــعــدا

فمن الذى أحدث هذه البدعة، أهم الذين رفضوا أن يبايعوا مغتصب الخلافة أم الذى اغتصب الخلافة وحولها إلى ملك يرثه الابن عن أبيه، وهذا مالايقبله الله، فالبيت إذن غمز وتعريض بالبدعة التى استحدثها الأمويون.

أما قوله:

وجــدنــا بنى مـــروان خـــيـــر أئمــة وأعـظم هذا الخلـق حلمــاً وســؤددا

وخير قريش فى قريش أرومة   وأكرمهم إلا النبى محمداً

ففى كلمة «أئمة» تهكم شديد بالأمويين لأنهم ملوك وليسوا أئمة وتفضيلهم على الخلق أيضاً بقوله: «وأعظم هذا الخلق» مبالغة مقصودة من قِبَل الأعشى ليفهم السامع المتبصر أنه إنما أراد الهجاء، وتأمل معى تفضيله لهم على قريش جمعاء باستثناء الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد فضلهم على كرام الصحابة والمسلمين السابقين للإسلام وذلك تعريض واضح وقوله: كذاك يضل الله من كان قلبه ضعيفاً ومن والى النفاق وألحدا

فى هذا البيت أيضاً دعاء على الحجاج وعلى الدولة الأموية، فالأعشى أطلق البيت ولم يحدده وإنما قال: «من كان»، ومن يكون قلبه ضعيفاً غير الحجاج الذى باع آخرته بدنيا غيره فما ربحت تجارته. وقوله:

لقد شمت يابن أشعث العام مصرنا   فضلوا وما لاقوا من الطير أسعدا

هذا البيت يحمل استخفافاً شديداً بعقلية الحجاج، فهو أمامه يهجو ابن الأشعث الذى طارت مدائحه فيه كل مطار، فهو يفعل ذلك أمام الحجاج وكأنه يخاطب طفلاً صغيراً يمكن أن يسترضيه بسب أو بضرب طفل آخر أغضبه أو أخذ منه لعبته.

يمكننا بعد هذه الوقفة السريعة مع بعض أبيات القصيدة أن نتيقن من نزاهة الأعشى وتمسكه بمبادئه حتى آخر لحظة فى حياته، فكان قتيل شعره الذى كان يعبر به عن قضيته وذاته فى مواجهة أكبر الأشرار وهو الحجاج بن يوسف الثقفى.

وضاح اليمن

هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال بن داد بن أبى جمد، وسمى «وضاح» لجماله، وقد اختلف العرب قديماً فى نسبه فمنهم من يقول إنه من أولاد الفرس الذين قدموا اليمن مع وهزر لنصرة سيف بن ذى يزن على الحبشة، ومنهم من يقول إنه من آل خولان بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم الذى ينتهى نسبه إلى يشجب بن يعرب، ولأن الرجل لم يمارس ولم يتهم ولم يتصف بالشعوبية فلا نرى حاجة لتقص نسبه ومحاولة ترجيح أحد الرأيين على الآخر، وإن كان الرأى القائل بعروبة نسبه له مايقويه على الرأى الآخر، فله بيتان يتغزل فيهما ببنات عمه فيقول:

إن قلبى معلق بنساء ... واضحات الخدود لسن بهجن

كان الوضاح شديد الجمال كما قلنا وكا أحد ثلاثة من العرب يردون المواسم مقنعين يسترون وجوههم خوفاً من العين وحذراً على أنفسهم من النساء لجمالهم، وهؤلاء الثلاثة هم المقنع الكندى، وأبو زيد الطائى، ووضاح اليمن.

ولاشك أن هذا الجمال كان بمثابة تصريح المرور لدى الوضاح فكان يهوى النساء وكانت النساء بدورهن يقعن أسيرات هواه، وقد عشق الوضاح امرأة قال لها «روضة» وقد اختلف أيضاً فى نسبها، فمن العرب من يراها يمنية ومنهم من يراها فارسية ولأننا لانرى أهمية لهذه القضية فى سياقنا هذا فلن نطرح هذا الأمر للمناقشة، فهى ليست بالنسبة لنا أكثر من امرأة عشقها الشاعر وكتب فيها بعض القصائد، ولايهم إذا كانت عربية أو فارسية أو رومية، عشقها الوضاح واشتد كلفه بها حتى اشتهر أمره معها وقد ذكرها فى أشعاره دون كناية أو تورية أو مداراة، مما جعل رفض أهلها زواجه منها أمراً طبيعياً بعد ذلك، فالعرب ترفض تزويج الفتاة لمن يذكرها فى شعره أو يشيع أمر

حبه على الملأ، خشية أن يظن الناس أن هذا الزواج إنما تم لستر أمر ما قد حدث بين العاشقين، ومن شعره فى روضة قوله:

يا روضة الوضاح قد ... عنيت وضاح اليمن

فاسقى خليلك من شرا ... ب لم يكدره الدرن

إنى تهيجنى إليك ... حمامتان على فنن

الزوج يدعو إلفه ... فتطاعما حب السكن

لا خير فى نث[1] الحديـ ... ـث ولا الجليس إذا فطن

فاعصى الوشاة فإنما ... قول الوشاة هو الغبن

إن الوشاة إذا أتو ... ك تنصحوا ونهوك عن[2]

لو قيل ياوضاح قم ... فاختر لنفسك أو تمن

لم أعد روضة والذى ... ساق الحجيج له البُدُن

لعلنا الآن نقف على طبيعة الغزل عند الوضاح، فلم يكن الوضاح شاعراً يتغزل غزلاً عفيفاً، ولا غزلاً صريحاً، ولكنه كان يمزج بينهما بشكل فنى طريف، فالمفردات عفيفة والمعنى صريح يبدو عند التأمل والتحقيق فى بعض الصور ففى قوله:

---

(١) نث الحديث: إذاعته

(٢) يرريد أن يقول عنى وقد حذفت الياء للوزن والقافية

فـــاســـقى خليلك من شـــرا ب لـــم يكـــدره الــــدرن

إنـــى تهـــيـــجنى إليــــك حـــمـــامـــتـــان على فنن

واضح أنه غزل صريح وإن كان اللفظ يأخذ القارىء فى البداية بعيداً عن هذه الرؤية، فماذا يكون ذلك الشراب الذى لم يكدره الدرن إن لم يكن هو ريق حبيبته؟ وماهو وضع الحمامتين اللتين «تهيجان» الشاعر على الفنن؟

أليس وضعاً غرامياً مثيراً يود لو فاز بمثله مع محبوبته.

ومن طريف ماقاله الوضاح فى روضة قوله:

ياروض جيـــرانكم البـــاكـــر فـــالقلـــب لالاهٍ ولاصـــابر

قـــــالت ألا لاتلـجن دارنـا إن أبانـا رجل غـــــائر

قلـت فـإنى طالـب غـرة منه وسـيـفى صـارم بـاتر

قـالت فـإن القـصـر من دوننـا قلـت فـإنى سـابح مـاهر

قـالت فَحَولـى إخـوة سـبـعـة قلـت فـإنى غـالب مـاهر

قـالت فليـث رابـض بيننـا قلت فـإنى أسـد عـاقـر

قـالت لقـد أعـيـيتنا حـجـة فـأتِ إذا ماهجـع السـامـر

فـاسـقط علينا كـسـقـوط الندى ليـلة لا نـاهٍ ولا زاجـر

هذه لوحة جميلة تصور أول ماتصور خصوبة خيال الشاعر الذى تخيل كل ذلك الحوار بينه وبين حبيبته، وأعذب مافيها هو تخيله لطول الحوار الذى يتمناه ويصعب على من هم

فى مثل ظروفهم أن يتبادلوه فى هدأة وسكينة، فتصور أنها جالسة فى أمان بعيداً عن أعين الرقباء وماأكثرهم ثم راح يرجو وصلها رجاء المشتاق الظمىء المعذب، بينما رراحت هى تحذره بدورها من عواقب تلك المجازفة، ولعل الوضاح كان يلتمس لحبيبته العذر إثر العذر من خلال هذه العقبات التى كانت تضعها أمامه أو أمام لقائهما أو عبارة أخرى من خلال هذه العقبات التى يضعها هو على لسانها، وكأن لسان حاله يقول لها: «أعرف ياحبيبتى مايمنعك منى».

ليس من الصواب أن يتصور القارىء لهذه الأبيات أن حواراً حقيقياً قد دار بين الوضاح وروضته ثم صاغه الوضاح شعراً بعد ذلك، فالأبيات تنتمى للون من الشعر يمكن أن نسميه شعر المجون وهو لون معروف سبق الواضح فيه شاعر كعمر بن أبى ربيعة الذى كان يحكى فى قصائده مغامراته مع النساء وكيف زارهن واستقبلنه وكيف قضى وطره منهن ثم كيف خرج من عندهن برغم المخاطر التى تحف ذلك، لكننا لن نتوقف عند ذلك الدليل، فليس معنى وجود ذلك اللون أن كل شعر يشبهه ينتمى إليه، لكننا سوف نأتى بدليل تخيل الحوار من الحوار ذاته، فإنه من المضحك بالفعل أن تحذر الفتاة حبيبها من أبيها فيقول لها:

قلت فإنى طالب غرة   منه وسيفى صارم باتر

أليس من المضحك أن يفند الوضاح حجة حبيبته بقتل أبيها، فكأنه يقول لها إذا كان أبوك هو المشكلة قتلناه على غرة منه، وأى ليث ذلك الرابض بينهما لكى يكون الوضاح أمامه أسداً عاقراً، وقد تجاوزنا عن القصر والبحر والأخوة السبعة حول الفتاة. إن الوضاح بينه وبين نفسه أخذ يتصور كل مايمكن أن يحول بينه وبين فتاته ويتصور أيضاً أنه يتغلب على

كل ذلك، ففى نهاية الأبيات يقول:

قالت لقد أعييتنا حجة ... فأتِ إذا ماهجع السامر

هذا البيت يؤيد أيضاً ماقلناه، فلم يكن الحوار بينهما مجرد جدل بيزنطى ينتهى بنصرة أحدهما على الآخر بقوة حجته ولكنه - إن كان حواراً حقيقياً - يترتب عليه حدث هام هو زيارة الشاعر لمحبوبته، وليس من السهل ذلك كما أن براعته فى المحاورة لايمكن أن تلغى تلك المخاطر التى تصور أنها بهذه السهولة.

لم يكن الوضاح لينسى حبه بمجرد رفض أهل حبيبته تزويجه إياها، فالحب ليس من العلاقات الاجتماعية التى يمكن أن تتأثر أو تهتز لمثل هذه الأمور، فهو علاقة شديدة الخصوصية بينه وبين حبيبته، لذلك تراه يذكرها فى شعره حتى بعد أن زوجت غيره، فيقول:

ياأيها القلب بعض ماتجد ... قد يعشق المرء ثم يتئد

قد يكتم المرء حبه حقباً ... وهو عميد وقلبه كمد

ماذا تريد من فتى غزل ... قد شفه السقم فيك والسَّهَدُ

يهددونى كيما أخافهم ... هيهات أنى يهدد الأسد

لقد أصر وضاح على حبه لروضة حتى تدخل القدر ففرق بينهما الفراق الذى ليس بعده لقاء، فقد أصيبت روضة بمرض الجذام، وكان العرب يعزلون مرضى الجذام فى أماكن خاصة نائية عن الأماكن المأهولة كتلك التى نسميها الآن مناطق «الحجر الصحى» خوفاً من انتشار المرض بين الناس، وقد مر عليها الوضاح أثناء سفره مع بعض أصحابه، فاستوقفهم

وعدل عنهم ساعة فـزارها وأصلح من شأنها وأعطاها نفقة من ماله ثـم عاد لأصحابه يبكى، فلما سألوه عن سبب بكائه أخبرهم بما رأى، لكن من الغريب أننا لانجد للوضاح شعراً يرثى به روضة، ربما قال ذلك الشعر فضاع مع ماضاع من الشعر العربى الذى لم تستطع السنوات الطويلة أن تحتـفظ به كله، وربما ماتت ولم يعلم بموتهـا، وربما أراد أن يحتـفظ بذكراها ندية فى نفسه، فرثاؤه لها يؤكد فكرة موتها التى ربما كـان يود الفرار منها، كأنه يريد أن يحيا حياة المشتاق المعذب ويفضلها على حياة الفاقد الثاكل، ربما أراد أن يكون آخر عهده بها قوله:

لـــو قـــيل ياوضـــاح قـــم ... فـــاخـــتـــر لنفـــسك أو تمـــن

لـــم أعـــد روضـــة والـــذى ... ســـاق الحـــجـــيج له البُدُن

حينما أقف أمام شـخص ما تسبب جماله فى هلاكه أذكر على الفور قـول الشاعر حافظ إبراهيم:

فـوردة الروض لولا حسن منظرهـا ... لما اسـتطالت عليهـا كف جـانبهـا

فاليد تمتد لتقطف الوردة غير عابئة كثيراً بمصير هذه الوردة، ولم يكن الوضاح أقل جمالاً من وردة امتدت إليها يد أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك فأهلكتها.

كانت أم البنين فى حجها قد قدمت مكة ومعـها بعض جواريها، وقد كتب الوليد يتوعد الشعراء جميعاً إن ذكرها أحد منهم أو ذكر أحداً ممن معها، لكنها حـينما وقعت عينها على الوضاح هويته، وطلبت منه ومن كُثَيِّر أن يـنسبا بها، لكن كُثَيراً أدرك عاقـبة ذلك وتحسب له فعدل عن النسيب بها ونسب بجارية لها تسمى غاضرة فقال:

شـجـا أظـعـان غـاضـرة الغـوادى ... بغـيـر مـشـورة عـرضـاً فـؤادى

أغاضر لو شهدت غداة بنتم حنو العائدات على وسادى

أويت لعاشق[1] لم تشكميه بواقلة تلذع كالزناد

لكن الوضاح لم يكن على ذلك القدر من الحذر والحيطة، فقد انطلق لسانه برقيق الشعر نسيبا فى أم البنين، متغافلاً عن مكانتها ومكانة زوجها وهو من هو فى الدولة، ولسنا نرى لجرأة الوضاح مايبررها لامن الناحية العقلية ولا من الناحية العاطفية ولا من الناحية المادية.

فمن الناحية العقلية لم تكن أم البنين امرأة عادية شأنها شأن كل النساء اللائى يمكن أن يتناولهن شاعر بالنسيب مستنداً إلى بأسه أمام بأس زوجها، أو إلى بأس قبيلته أمام بأس قبيلتها، إنما كانت أم البنين زوجة الرجل الأول فى الدولة وهو خليفة المسلمين، لذلك لايمكن أن نمر بهذه المسألة دون أن نسجل استنكارنا لموقف الوضاح وجرأته التى جرت عليه الهلاك ووضعته فى طريق رجل من عائلة جاءنا تاريخها مكتوباً بدماء قتلاها.

أما من الناحية العاطفية فلم يكن الوضاح عاشقاً يتحرق شوقاً لأم البنين فيتدفق اسمها فى أشعاره وهو فى نشوة المحب الغائب فى نوبة شوقه، فيغفل أو يتغافل عن مكانة محبوبته ومكانة زوجها، إنما كان شاعراً جميل الوجه عشقته زوجة الخليفة وأرادت أن يؤثرها على النساء وينسب بها نسيباً يرضى غرور أنوثتها، فالمرأة هى المرأة فى أى عصر وأى مكان ومكانة، تحب أن تكون الأثيرة لدى الرجال وأن يشتهر ذلك عنها، وليس أقدر على ذلك من

---

(١) أويت لعاشق: اشفقت عليه

الشاعر الذى كان فى ذلك العصر أوضح أجهزة الإعلان صوتاً لالتفاف الناس حوله وجريان شعره على ألسنتهم وترديده فى كل منتدى وسوق، لكن ذلك لايبرر للوضاح مافعله، فقد كان فى إمكانه أن يسترضيها بشىء غير حياته ولن يتهم بالبخل حينئذ أو بالجبن أو بالتخاذل.

أما من الناحية المادية فلم يثبت أن الوضاح كان فقيراً فيضطر لفعل مافعل طلباً للمال، ولو كان فقيراً لاحترف المدح والوقوف بباب الأغنياء وذوى المناصب فى الدولة، لكن تاريخه مملوء بقصص الهوى وشعر الغزل، كما أن النساء لاتجيز الشاعر المتغزل بالمال وإنما لهن ثرواتهن التى يمكن أن يهبن منها دون أن تنتقص شيئاً، وكان الأولى به أن يمدح زوجها وهو الخليفة فيعطيه مايغنيه وينصلح به حاله، وهذا بالضبط مافعله، فقد قال فيه بعض القصائد التى أشاد فيها بقوته وكرمه وسماحته وغير ذلك مما كان يمدح به الملوك والخلفاء، لكن ذلك حدث بعد فوات الأوان، فسرعان ماانتشر شعره فى أم البنين فلم تعد لمدائحه أى صدى عند الخليفة، فذلك أمر لايمكن لقصيدة مهما بلغت فخامتها أن تمحوه أو تخفف من حدة وطأته، لذلك لانرى للوضاح عذره المادى.

أما التفسير الوحيد الذى يمكن أن نطرحه لموقف الوضاح فهو تفسير نفسى، فوجود كُثَيِّر معه فى نفس الموقف ربما فتح عليه باب التميز والاختلاف، فأراد أن يصرح باسمها بعد أن تجاوز كُثَيِّر عن ذلك وشبب بجاريتها «غاضرة»، ورغبة الرجل فى التميز أمام المرأة لايعادلها إلا رغبة المرأة فى التميز أمام الرجل، ويمكننا أن نقول إن العالم لو خلا من النساء لخلا من بطولات الرجال، فلا يمكن أن نتصور أن الحروب التى خاضها عنترة من أجل عبلة كان من الممكن أن يخوضها من أجل رجل آخر أياً كانت مكانته بالنسبة لعنترة، فالمسألة بعد تجريدها

ممن تفاصيلها هى مسألة امرأة عاشقة ورجل شاعر.

لعله من المناسب الآن أن نورد بعض أشعاره فى أم البنين لنرى كيف يموت الرجل المجرد من أجل المرأة المجردة.

يقول وضاح:

أصحوت عن أم البنيـ ـن وذكرها وعنائها

وهجرتها هجر امرىء لم يسل صفو صفائها

قرشية كالشمس أشـ ـرق نورها ببهائها

زادت على البيض الحسا ن بحسنها ونقائها

لما اسبكرت للشبا ب وقنعت بردائها

لم تلتفت للداتها ومضت على غلوائها

لولا هوى أم البنيـ ـن وحاجتى للقائها

قد قربت لى بغلة محبوسة لنجائها

ومن شعره أيضاً مقطوعات أوضح غزلاً من المقطوعة السابقة وأكثر جرأة، يقول:

صدع البين والتفرق قلبى وتولت أم البنين بلبى

ثوت النفسى فى الحمول لديها وتولى بالجسم منى صحبى

ولقد قلت والمدامع تجرى بدموع كأنها فيض غرب

جزعاً للفراق يوم تولت حسبى الله ذو المعارج حسبى

وإذا كان الشاعر فى المقطوعتين السابقتين يستخدم فى خطاب أم البنين ضمير الغائبة، أى أنه يتكلم عنها ولايكلمها فإنه فى المقطوعة التالية يخاطبها خطاباً مباشراً فيقول:

يابنة الواحد جودى فما	إن تصرمينى[1] فبما أولما
جودى علينا اليوم أو بينى	فيم قتلت الرجل المسلما
ماعلق القلب كتعليقها	واضحة كفاً علت معصما
ربة محراب إذا جئتها	لم ألقها أو ارتقى سلما
لامنّة أعلم كانت لها	عندى ولاتطلب فينا دما
بل هى لما رأت عاشقاً	صبا رمته اليوم فيمن رمى
لما ارتمينا ورأت أنها	قد أثبتت فى قلبه أسهما
أعجبها ذاك فأبدت له	سُنّتها[2] البيضاء والمعصما
قامت تراءى على قصرها	بين جوارٍ خرد[3] كالدُمّى
وتعقد المرط[4] على جَسْرة[5]	مثل كثيب الرمل أو أعظما

لعلنا نجد دوافع القتل واضحة جلية فى تلك المقطوعة لدى الوليد بن عبد الملك، فالبيت الأول يقطر عشقاً متجاوزاً كل الحدود، فهو يستخدم النداء بـ «يا» وهى حرف ينادى به

---

(١) تصرمينى: تقاطعينى (٢) سنتها: وجهها

(٣) خرد: جمع خريدة وهى البكر التى لم تمس قط، وقيل هى الحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت

(٤) المرط: كساء من صوف أو خز أو كتان يؤتزر به

(٥) الجسرة: العجيزة

القريب والبعيد، فكأنه يريد أن يصور قربها إلى نفسه وبعدها عن عينيه، واستخدم فعل الأمر «جودى» بما يحمل من دلالات تؤكد وثاقة الصلة بين الشاعر ومحبوبته، والتمييز الذى جاء بعد فعل الأمر «فما» يضع الخطوط الأخيرة فتبدو اللوحة مخدعية لايمكن رؤيتها أو قبولها على غير ذلك، وبذلك تكون الشطرة الأولى مسماراً فى نعش الوضاح.

أما الشطرة الثانية فبدأها الشاعر بأداة الشرط «إن» التى تفيد الشك، فكأنه قد وثق من نفسه ومن قدره عند محبوبته فأصبح يشك فى قدرتها على هجره أو مقاطعته، كما كان واضح الحساسية البلاغية حينما لم يجىء بفعل بعد فعل الشرط «تصرمينى» يكون جواباً له، فكأنه بشكه فى حدوث الفعل الأول يريد أن يستثير اللغة للتعاطف معه من خلال تجاوز قواعدها أو التحايل عليها، لذلك جاء بعد فعل الشرط باستفهامين متواليين غرضهما الاستنكار والتعجب.

والبيت الأخير الذى صور فيه أم البنين وقد عقدت على جسرتها كساءً من الخز، فبدت عجيزتها كأعظم ماتكون إنما كان آخر مسمار فى نعش الوضاح.

وربما أحس الوضاح بما يحيط به من خطر من قبل الخليفة أو بتعبير أنسب من قبل زوج المرأة التى ملأ بها الدنيا شعراً، فراح يبتغى السبل لإرضائه، وقد وعدته أم البنين أن ترفده عنده وتقوى أمره، فمدحه الوضاح بعدة قصائد منها قوله:

صبا قلبى ومال إليك ميلاً ... وأرقنى خيالك ياأثيلا

ثمانية تلم بنا فتبدى ... دقيق محاسن وتكن غيلا

فإنك لو رأيت الخيل تعدو ... سراعاً يتخذن النقع سيلا

إذا لرأيت فـــوق الخـــيل أســداً تفـيـد مـغـانما وتغـيث نيـلا

إذا صـار الـوليـد بنـا وسـرنا إلى خـيل نلف بهن خـيلا

وتدخـل بالسـرور ديـار قـوم وتـعـقـب آخـرين أذى وويلا

وكـما كـان الولـيـد يجـزل صـلة الشـعراء فـقـد أجـزل صـلة الوضـاح وأحسن رفـده وأغـدق عليه بالعـطـايا حتى بلغـه أنـه شـبب بأم البنـين فـجفاه وأمـر بأن يحجب عنه ودبر فى قتله.

يورد أبو الفرج الأصفهـانى فى كتابه «الأغانى» بعضاً من الـروايات حول قتل الوضـاح، تختلف فى تفاصيلها وتتفق فى نتيجتها، ففي إحدى هذه الروايات، أن الوضـاح قد شبب بأم البنين، فأمر الوليد بن عـبد الملك بطلبه، فأتى به، فأمر بقتله فقال له ابـنه عبد العزيز: لاتفعل ياأمير المؤمنين فـتحقق قوله، ولكن افعل به كـما فعل معاوية بأبى دهيل، فـإنه لما شبب بابنته شكاه يزيد وسأله أن يقـتله فقال: إذن تحـقق قوله، ولكن تبره وتحـسن إليه فيسـتحى ويكف ويكذب نفسه، فلم يقبل الوليد من ابنه، وجعل الوضاح فى صندوق ودفنه حياً.

وفى رواية ثانيـة أن أم البنين عشـقت وضاحـا، فكانت ترسل إليه فـيدخل إليـها ويقـيم عندها، فإذا خـافت وارته فى صندوق عندها وأقفلت عليـه، فأهدى للوليـد جوهر أعجـبه، فدعـا خادمـاً له فبـعث به إلى أم البنين وقال: قل لهـا: إن هذا الجوهر أعـجبنى فـآثرتك به، فدخل الخادم عليهـا مفاجأة ووضاح عندها فأدخلته الصندوق وهو يرى، فـأدى إليها رسالة الوليـد ودفع إليهـا الجوهر، ثم قـال: يامـولاتى هبينى منه حـجـراً، فقـالت: لاياابن اللخناء ولاكرامـة، فرجع إلى الوليد فأخـبره فقال: كـذبت يابن اللخناء، وأمر به فوجـئت عنقه، ثم لبس نعليه ودخـل على أم البنين وهى جالسة فى ذلك الـبيت تمتشط، وقـد وصف له الخادم

الصندوق الذى أدخلت الوضاح فيه، فجلس عليه ثم قال لها: ياأم البنين ماأحب إليك هذا البيت من بين بيوتك! فلم تختارينه؟ فقالت: أجلس فيه وأختاره لأنه يجمع حوائجى كلها فأتناولها كلها من قريب.

فقال لها: هبى لى صندوقاً من هذه الصناديق، قالت: كلها لك ياأمير المؤمنين، قال: ماأريدها كلها، إنما أريد واحداً منها، فقالت: خذ أيها شئت، قال: هذا الذى جلست عليه، قالت: خذ غيره فإن لى فيه أشياء أحتاج إليها، قال: ماأريد غيره، قالت: خذه ياأمير المؤمنين، فدعا بالخدم وأمرهم بحمله، فحمله حتى انتهى به إلى مجلسه فوضعه فيه، ثم دعا عبيده فأمرهم فحفروا بئراً فى المجلس عميقة، فنحى البساط وحفرت إلى الماء ثم دعا بالصندوق فقال: ياهذا إنه بلغنا شىء إن كان حقاً فقد كفنّاك ودفناك ودفنا ذكرك وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر، وإن كان باطلاً فإنا دفنا الخشب وماأهون ذلك، ثم قذف فى البئر وهيل عليه التراب وسويت الأرض ورد البساط إلى حاله وجلس الوليد عليه، ثم مارُئى بعد ذلك لوضاح أثر فى الدنيا، ومارأت أم البنين لذلك أثراً فى وجه الوليد حتى فرق الموت بينهما.

وفى رواية ثالثة أن الوليد بن عبد الملك بلغه تشبيب وضاح بأم البنين فهم بقتله، فسأله عبد العزيز ابنه فيه، وقال له: إن قتلته فضحتنى وحققت قوله، وظن الناس أن بينه وبين أمى ريبة، فأمسك عنه على غيظ وحنق، حتى بلغ الوليد أنه قد تعدى أم البنين إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه، وقال فيها:

بنت الخليفة والخليفة جدها	أخت الخليفة والخليفة بعلها
فرحت قوابلها بها وتباشرت	وكذاك كانوا فى المسرة أهلها

فأحنق واشتد غيظه وقال: أما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نسائنا وأخواتنا، ولاله عنا مذهب! ثم دعا به فأحضر، وأمر ببئر فحفرت ودفنه فيها حياً.

مهما يكن من أمر هذه الروايات فلن نحاول ترجيح واحدة منها على الأخرى مادامت الروايات جميعاً تتفق فى دفن الوضاح، لكن أخباره وذكره وأشعاره لم تدفن معه كما كان يعتقد الوليد.

بشّار بن بُرد

(لبشار فى تاريخ الأدب العربى صورة حالكة شديدة السواد، أسهم فى رسمها مؤرخو هذا الأدب، قدامى ومحدثون، ويطول المقام لو حاولنا حصر الصفحات الذميمة التى ألصقت به، ويكفى أن نعرف أن هذه الصورة فى النهاية تكان تكون تجسيداً حياً للشر الكامل المتجرد من كل ذرة من الخير، ولعل هذا مايبيح لنا أن نزعم منذ البداية أن مثل هذه الصورة المفرطة لايعقل أن تتحقق - لاهى ولانقيضتها المبالغة فى الخير - فى بشر لأن الأرض التى نعيش عليها لم يخرج إليها الشياطين، كما لم تنزل عليها الملائكة.

بشار فى هذه الصورة الشائعة: قاسى القلب، حاقد على البشر، يمعن فى هجائهم ويتلذذ به، داعر فاجر لايعرف للعرض حرمة، شديد التهالك على النساء، يندفع إليهن اندفاعاً حيوانياً يشمئز منه الذوق.

كما جمع إلى دمامة الخلقة - فى هذه الصورة - ثقل الروح وغلظة الشعور، وجبن الطبع، وتلون الرأى وخيانة الصديق، ثم هو زنديق منافق، وشعوبى متبجح، وهجاء سليط اللسان)[1].

وهذه الصورة التى رسمها معاصروه والتى لم تزدها القرون إلا قتامة، وجدت من النقاد المعاصرين من يلقى عليها كثيراً من الظلمة التى صورت الرجل وكأنه غول متوحش مستندين إلى صفاته الجسمية، فقد (كان ضخماً، عظيم الخلق والوجه، مجدوراً طويلاً، جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر، فكان أقبح الناس عمىً وأفظعه منظراً)[2].

---

(١) محاضرات فى الأدب العباسى للدكتور محمد عبد العزيز موافى صـ ١٢٩ مكتبة الشباب
(٢) الأغانى جـ٣ صـ ٩٨٧ ط. دار الشعب

ولم يدركوا أن هذا الأمر - لخروجه عن إرادته - لايمكن أن يكون منقصة فى الرجل ولاعيباً حصله ولاجرماً ارتكبه فيحاكم عليه.

واللوحة التى وصلتنا مصورة الملامح النفسية لبشار، لاشك هى لوحة كاريكاتورية تحمل بين خطوطها الكثير من المبالغة المقصودة وغير المقصودة، ولاشك أن بعض مواقف بشار والتى استخدمها معاصروه ومعاصرونا فى رسم هذه اللوحة كانت وليدة مواقف أخذها منه مجتمعه، فكانت مواقفه فى مواجهة مواقفهم، ولم تكن طبيعة متأصلة فى نفس الرجل..

ففى مسألة حقده على البشر - إن قبلناها كما وصلتنا - نجد واحداً منهم يتعرض لهجاء بشار، فيغلظ له القول ويعيره بعماه، ويرمى أمه بالزنا،

يقول أبو هشام الباهلى:

وعبدى فقا عينيك فى الرحم أيره	فجئت ولم تعلم لعينيك فاقيا
ألمك يابشار كانت عفيفة	على إذاً مشىُ إلى البيت حافياً

كيف تتوقع رد فعل رجل حساس رهيف الشعور، حينما يسمع ذلك الهجاء الذى يقدم تعليلاً فيزيقياً لحدوث عاهته التى لايستطيع أن ينساها، وكيف ينساها وكل مافى حياته الخاصة، والحياة العامة يذكره بها؟!

يقول أبو الفرج:

(ولم يزل بشار منذ قال فيه هذين البيتين منكسراً)، لقد انكسر الرجل، فهل نلومه على محاولته لم شتات نفسه المنكسرة ومحاولة إصلاحها، ألا يمكن أن نتوقع سلوكاً

مغايراً لبشار تجاه البشر إذا كانت الظروف مغايرة، وربما كان حمق المحيطين به سبباً آخر من أسباب تبرمه بالناس، (فقد رفع له غلامه فى حساب نفقته جلاء مرآة عشرة دراهم، فصاح به بشار قائلاً: والله مافى الدنيا أعجب من جلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم، والله لو صدئت عين الشمس، حتى يبقى العالم فى ظلمة مابلغت أجرة من يجلوها عشرة دراهم)[1]، ألا يستدعى ذلك الأمر حنقاً من الرجل أمام حمق غلامه أو خبثه، فربما أراد أن يأخذ الدراهم العشرة لنفسه، فبشار لن يستطيع التحقق من جلاء المرآة، فوضعه بذلك - على الرغم من تفاهة المسألة فى أزمة كبرى، فكان رد فعله الطبيعى ذلك السخط الذى أغرق فيه غلامه.

يروى أبو الفرج:

(مر رجل ببشار فقال: يابشار، فقال: من هذا الذى لايكنينى ويدعونى باسمى؟ فقال: سأخبرك من أنا، فأخبرنى أنت عن أمك: أولدتك أعمى، أم عميت بعدما ولدتك؟ فقال: وماتريد إلى ذلك؟ قال: وددت أنه فسح لك فى بصرك ساعة لتنظر إلى وجهك فى المرآة، فعسى أن تمسك عن هجاء الناس وتعرف قدرك، فقال: ويحكم! من هذا؟ أما أحد يخبرنى من هذا؟ فقال له: على رسلك، أنا رجل من عكل خالى يبيع الفحم بالعبلاء، فما تقدر أن تقول لى؟ قال: لاشىء اذهب، بأبى أنت فى حفظ الله)[2].

إن هذه الغلظة التى لايحتمل سماعها من لاناقة له فى الأمر ولاجمل، من الصعب جداً

---

(1) الأغانى صـ ١٠٠٨

(2) الأغانى صـ ١٠١٨

أن نطالب رجلاً كبشار بتحملها، فإذا لم يفعل اتهمناه بالتبرم بالناس وبضيق الصدر وثقل الروح.

والغريب أن هذا الرجل المسكين كان محسوداً من شعراء عصره على مايناله من عطايا، وقد فرض عليه شاعر يسمى «أبو الشمقمق» جزية سنوية يأخذها منه، إلى جانب ماتيسر من كل أعطية يعطاها بشار، (أمر عقبة بن مسلم لبشار بعشرة آلاف درهم، فأخبر أبو الشمقمق بذلك، فوافى لبشار فقال له: ياأبا معاذ إنى مررت بصبيان فسمعتهم ينشدون:

هللينة هللينة طعن ... قثاة لتينة

إن بشار بن برد ... تيس أعمى فى سفينة

فأخرج إليه بشار مائتى درهم وقال: خذ هذه ولاتكن راوية للصبيان ياأبا الشمقمق)[1].

أليس غريباً من شاعر هجاء أن يدفع ثمن السكوت عنه؟ ألم يكن من الطبيعى أن يتركه بشار يقول مايقول، ثم يرد عليه؟! لقد كان بشار يشفق على نفسه من هجائهم، ولاشك أنه كان يعتقد بعدم التكافؤ بينه وبينهم، لامن الناحية الفنية، فقد كان بشار أقذعهم هجاء وأسلطهم لساناً، وقد تعرض لهجاء جرير شخصياً وقد أحزنه أن جريراً لم يرد عليه، لكن المسألة تختص بالآفة، إنه يحاول أن يتجنب مهاجاة من يبدأون بذكرها فى هجائهم له، لأنه فى هذه الحالة لن يستطيع الرد عليهم بمثل ماقالوا، وربما كان للهجاء تصور خاص فى ذهن

---

(١) الأغانى صـ ١٠٤١

بشـار يخرج منه مـاقاله أبو هشـام الباهلى وأبو الشـمقـمق فلا مـجال إذن للرد عليـهم لأن ماقالوه ليس هجاءً فى تصور بشار وذلك مـاأرجحه، وهذا أيضاً يدحض الرأى القائل بجبنه عندما سكت عن من يهجوه ولم يرد عليهم.

أمـا عن ثقل الروح فـهى تهـمة نراها تـلصق بأى رجل غـير بشـار، فـالفكاهة والدعـابة وسرعة البديهة وخـفة الروح عند بشار تفوق نظيراتها عند غيره من شعـراء عصره، وسيرته تحمل الكثـير من المواقف والشـواهد على ذلك، يروى أبو الفرج: (مـر بشار بقـوم يحملون جنازة، وهم يسـرعون المشى بهـا، فقال: مـالهم مسـرعين! أتراهم سرقـوه فهم يخـافون أن يلحقوا فيؤخذ منهم؟)[1].

هذه لفتة ودعابة إن صدرت عن رجل ثقيل الروح لفضل الناس ثقل الروح على خفتها.

وبلغ بشار من خفـة روحه أنه قال شعراً على لسان حمـاره الذى مات، وقد رآه فى المنام وسأله عن سبب موته، فقال:

سـيـدى خـذ بى أتـانا	عـند بـاب الأصـبـهـانى
تـيـمـتـنى بـبـنـانٍ	وبـدلٍ قـد شـجـانى
تـيـمـتـنى يـوم رحـنـا	بـثـنـاياهـا الحـسـان
وبـغـنـج ودلال	سل جـسـمى وبـرانى

---

(١) الأغانى صـ ١٠٠٧

ولهـــا خـــد أســـيل مـــثل خـــد الشـــيـــفـــران

فـلـذا مـــت ولـو عـــشــــــ ـــت إذاً طـــال هـــوانـى

فلما سـألوا بشاراً عن الشيـفران، وكان لفظاً لاتعـرفه العرب، قـال: ومايدرينى، هذا من غريب الحمار، فإذا لقيته فاسأله.

أى خفـة روح هذه التى تصور الحمـار يموت عشقـاً، وتجعله شاعـراً غزلاً ينسب بالأتان الذى أضناه وتيمه وأرقه حـبها حتى مات، وأى سرعة بديهة تلك التى أسـعفته فى الرد على من سأله عن «الشيفران»، فقد أكد أنه يروى شعر الحمار لاشعره، ولايصح أن يسأل هو عن غريب جاء به غيره ولو كان حماره.

وحشو الشعر بالغـريب من الألفاظ أمر اشتهر به بشار، فكان إذا أعوزتـه القافية لايتعب نفسه فى طلبها والبحث عنها وإنما كان ينحت لفظاً يراه مناسباً للقافية ويقوله.

يروى أبو الفـرج: (كان بشـار يحـشو شـعره إذا أعـوزته القافـيـة والمعنى بالأشياء التى لاحقيقة لها، فمن ذلك أنه أنشد يوماً شعراً له فقال فيه:

غنـــنى للغريـــض يابـــن قنـــان

فقيل له: من بن قنان هذا، لسنا نعـرفه من مغنىِّ البصرة؟ قـال: وماعليكم منه! ألكم قبله دين فـتطالبـونه به، أو ثأر تـريدون أن تدركـوه، أو كـفلت لكم به فـإذا غـاب طالبـتـمـونى بإحضاره؟ قـالوا: ليس بيننا وبينه شىء من هذا، وإنما أردنا أن نعرفه، فـقال: هو رجل يغنى لى ولايخرج من بيتى، فقالوا له: إلى متى؟ قال: منذ ولد إلى يوم يموت)[1].

---

(١) الأغانى: ١٠٠٩

لاشك أن هذا الحوار قد دار بين أناس يضحكون ملء صدورهم، وأخال بشاراً يضحك حتى يفرق الضحك بين الحرف وأخيه فى الكلمة التى ينطقها، ثم يتبع ذلك بأن يصفق بيديه، ثم يضرب فخذيه بهما وقد تمايل جسمه الضخم، ودمعت عيناه الجاحظتان.

وكما كان بشار مزاحاً فى مجالس اللهو، كان أيضاً مازحاً فى مجالس الجد والعلم فكان يقول الطرفة اليسيرة التى تهدىء من حدة المناقشات وتجدد دم الجلسة من خلال ابتسامة تكون فاصلاً، فيبدأون بعدها بداية جديدة، ومن ذلك (كان بشار جالساً فى دار المهدى والناس ينتظرون الإذن، فقال بعض موالى المهدى لمن حضر: ماعندكم فى قول الله عز وجل: «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر» فقال له بشار: النحل التى يعرفها الناس، فقال: هيهات ياأبا معاذ، النحل بنو هاشم، وقوله: «يخرج من بطونها شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس» يعنى العلم، فقال له بشار: أرانى الله طعامك وشرابك وشفاءك يخرج من بطون بنى هاشم، فقد أوسعتنا غثاثة، فغضب وشتم بشاراً، وبلغ المهدى خبرهما فدعى بهما وسألهما عن القصة ، فحدثه بشار بها، فضحك حتى أمسك على بطنه، ثم قال للرجل: أجل فجعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم، فإنك بارد غث)[1].

واضح أن بشاراً أدرك مابالرجل من النفاق الغث الذى جعل من ينافقه يشمئز منه ويوبخه ويهينه، لذلك عمد بشار إلى السخرية اللاذعة منه لأنه أدرك أن

---

(١) الأغانى صـ ١٠٠٤

الرجل يفهم الآيات، ولكن يحلو له أن يفسرها تفسيراً يرائى به المهدى وهو من بنى هاشم.

(مر بشار بقاص فى البصرة فسمعه يقول فى قصصه: من صام رجباً وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً فى الجنة، صحنه ألف فرسخ فى مثلها، وعلوه ألف فرسخ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصرره عشرة فراسخ فى مثلها، فالتفت بشار إلى قائده فقال: بئست والله الدار هذه فى كانون الثانى)[1].

ربما كان ذلك رد فعل طبيعى تجاه مقولة رجل يدخل فى الدين ماليس فيه، ومادام الأمر كذلك فلا بأس من أن يعلق بشار تعليقاً طريفاً فيه فكاهة تطغى على غظيه من كلام الرجل.

ومن أطرف مواقف بشار التى تبرز سخريته من الاتجاهات المذهبية موقفه من رجل يسمى «هلال الرأى» وكان ثقيلاً لايحتمله الناس، فقال له بشار: (ياهلال أتطيعنى فى نصيحة أخصك بها؟ قال: نعم، قال: إنك كنت تسرق الحمير زماناً ثم تبت وصرت رافضيا[2]، فعد إلى سرقة الحمير فإنها والله خير لك من الرفض)[3].

إن هذا الخلط المقصود النابع من ازدراء بشار للرافضة وأتباعها لايمكن أن يصدر إلا عن شخصية مرحة متفكهة، تؤثر الضحك على اللجاج فى المناقشات العقيمة التى يستمسك كل طرف فيها برأيه دون أن يسمع رأى وحجة الطرف الآخر، فبشار يحسم مثل هذه القضايا

---

(١) الأغانى صـ ١٠٠٦

(٢) الرافضة. فرقة من الشيعة بايعوا زيداً بن على ثم قالوا له تبرأ من الشيخين فأبى فرفضوه

(٣) الأغانى صـ ١٠١٤

بشكل طريف، ينأى برأيه عن سماع المحفوظات التى يمكن أن يرددها هلال والتى حفظها فى مجالس الرافضة، وأصبح مهيأ لإلقائها فى كل مناسبة تتاح.

هذه بعض المواقف التى رأينا أنها تدحض القول بثقل روح بشار وهى نقطة فى محيط بالنسبة لما فى حياته من مثل هذه المواقف، ولعل الذين قالوا بثقل روحه كان يعوزهم التعاطف معه أو على الأقل قراءة سيرته بحياد بعيداً عن تبرمه بالناس وضيقه بهم.

شعوبيته

أما كونه شعوبيا فهذا أمر ثابت عليه لن نحاول نفيه عنه، ولكننا سنحاول بقدر الإمكان توضيح ملامح شعوبيته، حتى يتسنى لنا الحكم الصحيح العادل عليها، هل هى رد فعل لموقف العرب تجاه الموالى أم هي نزعة متأصلة فى نفس الرجل أخذ ينفث عنها فى أشعاره، فقد (ساعد على اتساع الفجوة بين بشار ومجتمعه النظرة العرقية التى نظر بها العربى إلى الموالى غير مطبقين لمبادىء الإسلام فى التسوية بين كافة الأجناس «سلمان منا آل البيت». مكتفين بتطبيق العدل القضائى مهملين إقامة العدل الاجتماعى بينهم. فأخضعوا المجتمع المسلم لنظرة عنصرية يدينها الإسلام وانعكست هذه النظرة فى مظاهر شتى من العلاقات الاجتماعية)[1].

ونتيجة لهذا تعرض بشار لما عاناه غيره من الموالى، لكن بشاراً بحساسيته واعتداده بذاته، وازدرائه لمجتمعه - لن يسهل عليه تجرع تلك الإهانات، وإذن فلتشتعل

---

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين جـ١ صـ٢٢

الحرب بينه - هو ومن ماثله - وبين المجتمع العربى، وبخاصة بعد أن دالت دولة العرب بقيام ملك بنى العباس على أكتاف الفرس الذين استغلوا وضعهم الجديد فى التنفيس عن أحقادهم المكبوتة، والثأر لما لحقهم طوال الحكم الأموى الذى أزرى بهم وأخرهم عن غيرهم.

ومن هنا كان الصوت الشعوبى من أقوى الأصوات فى شعر بشار، بدأه هادئاً، ثم استمر يعلو به حتى تحول إلى صخب وضجيج، يلاطم البيئة التى تصر على تحقير الموالى، وتعتنق النزعة العنصرية التى تجعل هؤلاء كماً مهملاً مؤخراً فى المجتمع ويمكن القول بأن هذه النزعة ضاعفت من حدة بشار وإفراطه فى هذا المجال فوقع فى نفس الخطأ الذى ارتكبه العرب، وعالج الداء بداء آخر لايقل عنه شناعة)[1].

وهذا الداء الذى عالج به بشار داءه هو احتقار العرب والازدراء عليهم فى بعض شعره، وحتى نكون منصفين نقول إن هذا الاحتقار والإزدراء لم يجىء إلا نتيجة لمواقف استدعت ذلك، أى أن الرجل لم يكن يشيع أشعاره فى هجاء العرب، وإنما كان يقولها فى مواقف لتكون حصنه الذى يتحصن به أمام مواقف اتخذها بعض العرب تجاهه، منها مثلاً:

(دخل أعرابى على مجزأة بن ثور السدوسى وبشار عنده وعليه بذة الشعراء، فقال الأعرابى: من الرجل؟ فقالوا: رجل شاعر، فقال: أمولى هو أم عربى؟ قالوا: بل مولى، فقال الأعرابى: ومالِلموالى وللشعر! فغضب بشار وسكت هنيهة ثم قال: أتأذن لى ياأبا ثور؟

---

(١) محاضرات فى الأدب العباسى صـ١٤١

قال: قال ماشئت ياأبا معاذ، فأنشأ بشار يقول:

خليلى لاأنـــام عـــلى اقتـــســـار ... ولا آبـــى عـلى مـــولى وجـــار

ســأخــبــر فــاخــر الأعــراب عنى ... وعنه حــين تأذن بـالفـخـار

أحـــين كـسيت بـعـد العرى خـــزاً ... ونادمت الكبـار على العـقـار[1]

تفاخـــــر ياابـــــن راعيــــة وراع ... بنى الأحرار حسبك من خسار[2]

وكنـــت إذا ظمئت إلـــى قـــراح ... شـركت الكلب فى ولغ الإطار[3]

تريـــغ بخطبـــة كـســر المـــوالى ... وينسيك المكارم صيد فـار[4]

وتـغـــدو للـقنـافـــد تدريـهـــا ... ولم تـعـــقل بـدراج الديـار[5]

وتتشـــح الشـمـال لـلابسيـهـا ... وترعى الضـأن بالـبلد القـفـار

مـقـامك بيننـا دنـــس علينـــا ... فليـتـك غـائـب فى حـر نار

وفـخـرك بـــين خنزيـــر وكلـــب ... على مثلى على الحـدث الكبـار

قال مجزأة للأعرابى: قبحك الله! أنت كسبت هذا الشر لنفسك ولأمثالك[6].

هذا هو رد بشار على تهكم الأعـرابى وسخريته، والواقع أن سؤال الأعرابى لايخلو من سخف وسماجة، فبعد أن عـرف أن الرجل شاعر، سأل أمولى هو أم عربى؟ وسؤاله يحمل

---

(١) الخز: الحرير، العقار: الخمر

(٢) بنى الأحرار: يريد الفرس

(٣) ولغ الإطار: شرب الماء الراكد حول البيت

(٤) تريغ: تريد

(٥) تدريها: تنهز فرصة لصيدها، تعقل: تلحق، الدارج: القنفد

(٦) الأغانى صـ١٠١٢ ومابعدها

اعترافاً بقدرة الموالى علـى قول الشعر وإجادتهم فيه وإكثارهم منه وكثرتهم فى ميدانه، ولو لم يكن كـذلك لكان سؤاله على ذلـك النحو: من أين الرجل؟ أو من أى العـرب الشاعـر؟ لكنه دون أن يدرى اعترف بما استنكره بعد ذلك بقوله: وماللموالى وللشعر.

يعلق أستاذنا الدكتور محمد عبد العزيز موافى على هذه القصيدة فيقول:

(ربما لو أمعنَّا النظر فى هذه القصيدة لأدركنا أنها ليست من قبيل ردود الأفعال، فالصور التى تلتمع فيها تكاد توحى بأنها نضجت على نار هادئة، وأن مبـدعها يتهيأ لإخراجها ويفتن فى رسمها قبل أن تحين الفرصة لإعلانها)[1].

لكن القصة التى أوردها أبو الفرج تجعلنا نرى رأياً مـخالفاً، ففى الرواية أن بشاراً غضب وسكت هنيـهة، ولايمكن أن يفـسر سكوته على أنه كـان يفكر أيقول القـصيـدة - لو سلمنا جدلاً بأنهـا معـدة سلفـاً - أم لايقولـها، فليس مـثل هذا السلـوك يتبناه بشـار، ولو كـانت القصيدة معدة سلفا لسارع بإلقائهـا دون انتظار شىء، فهذا يظهره فى صورة الشاعر السريع البديهة، المجيد الارتجال، كما أن الموقف لايستدعى الانتظار، لقد أهين ومن حقه أن يرد على هذه الإهانة، إذن لم تكن فـترة سكوته إلا للإعـداد السريع الذى يكون الانفعـال فيـه وقوداً لاتستـطيع الليالى الهـادئة توفيـره، كمـا أن مجزأة السـدوسى قد وبخ ذلك الأعـرابى الذى تسـبب فى وجود هذه القـصـيدة فـقال له: قـبـحك الله! فأنت كـسبـت هذا الشر لنفـسك ولأمثالك، فقـد اعتبر مجزأة القصيـدة موجهة وليست مطلقة، وجهـها بشار لذلك الأعرابى

---

(١) محاضرات فى الأدب العباسى

وأمثاله ممن يبخسون الموالى حقهم ويحاولون النيل من قدرهم، ويؤيد هذا الرأى كون مجزأة نفسه عربياً فهل يهجوه بشار - إذا كانت القصيدة مطلقة - وقد جاءه قاصداً مدحه؟!

نستطيع إذن أن نقول دون مبالغة أو مغالاة أن الشعوبية لدى بشار كانت رد فعل للتفرقة العنصرية التى سادت فى ذلك العصر، كما أن انتشار الشعوبية فى العصر العباسى يبرىء الرجل من كراهيته الخاصة للعرب وحقده عليهم.

تهالكه على النساء

كان بشار رجلاً مكتمل الصحة الجسمية والنفسية، وكأى رجل كان ولعاً بالنساء، والواقع أن ولع الرجال بالنساء أمر فطرى غرس فيهم، يتفاوتون بالنسبة لهذا الأمر تبعاً للصحة الجسمية والخبرات النفسية، هذا بالنسبة للاشتهاء، أما عن مدى إعلان هذا الاشتهاء فهذه قضية خلقية أكثر منها بيولوجية، فهم يتفاوتون فيه بحسب التدين والنشأة البيئية والخلقية.

والمرأة بالنسبة لبشار هى المرأة بالنسبة لغيره من رجال عصره على الأقل ولانقول بالنسبة للرجال بشكل مطلق، هى كائن رقيق، حنون، عذب الحديث، لديه كل مايحتاجه الرجل على الأقل فى لحظات خلوه التى يبحث فيها عن ذاته التى لايجدها إلا عند امرأة.

ولقد وصف بشار بأنه ذو شهوانية مفرطة وتهالك زائد على النساء، يقول الدكتور عبد العزيز الموافى (ولم يهرب بشار من مواجهة واقعه فكان لايفتأ يعلل لتعلقه بالنساء على الرغم من عماه «فالأذن تعشق قبل العين أحياناً» ودمعه يفيض غزيراً متحسراً على مافاته بفقده البصر، ومع ذلك لم يعدم حجة يبرر بها تعلقه بالنساء.

وكــاعب قــالــت لأترابهـــا	يــاقــوم مــاأعــجـب هذا الضــرير
هل يـعــشـق الإنســان من لايرى	فـــقلـت والدمع بـعــيـني غـــزير
إن تـــك عـــيني لاتــرى وجـهـهـا	فـإنهـا قـد صـورت في الـضـمـيـر[1]

لماذا نطالب الرجل بتقديم حـجة يبرر بها تعلقه بالنساء؟! هل هذا يحـتاج إلى حجة، إن الحجة واضحـة جلية لاتحتاج إلى أن يسأل عنهـا، ألا وهى أن بشاراً رجل، وهى امرأة، تعلق كل منهما بالآخر أمر يفرضه اختلافهما فى الجنس.

ومســألـة فقـد بصـره لاتخـرجـه من عداد البـشـر حتى يتـعجب من عـشقـه لواحدة من البشـر، وإذا كـان الـناس قـد اعتادوا النظـرة سبباً في حدوث العـشق ففـاقد البصـر يملك البدائـل لهـذه النظرة، فالبصر حاسة واحدة، بينما الحـواس البشرية خمسة، كما أن الإنسان - رجلاً كـان أو امرأة - ليس لوحة مسطحة لايمكن إدراكـها إلا بوساطة العين، فـالإنسان كائن يتكلم ويتنفس ويتحرك ويمارس الكثير من الأنشطة الـتى لاتجعله مجرد ملامح يجهلها من لايراها.

الإنسان شخصية تتحـرك فى إطار هذه الملامح فإذا كانت العينان لاتدركان هذه الملامح، فالشخصية تُدرك ببقية الحواس فتحب أو تكره تبعاً لميل المحب لهذه الشخصية أو ميله عنها، وأعتقد أن هذا هو التحليل المقنع لرد فعل بشار تجاه من لاموه في حبة «عبدة» التي يبدو أنها لم تكن جميلة فقال:

---

(١) محاضرات فى الأدب العباسى صـــ١٥٨

يزهدني في حب «عبدة» معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبي

فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لابالعين يبصر ذو الحب

فما تبصر العينان في موضع الهوى ولاتسمع الأذنان إلا من القلب

وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا وألف بين العشق والعاشق الصب

المؤسف أن الناس قديماً وحديثاً استنكروا على بشار حبه للنساء، فلما أحب النساء، وصفوه بالشهوانية المفرطة التي تصل إلى الحيوانية، ثم راحوا يعللون هذا الإفراط في الشهوة بعاهته - عماه - ويورد الأصمعي قولاً في ذلك لم نسمع بأطرف ولاأفكه منه يقول:

(هما طرفان ماذهب من أحدهما زاد في الآخر)، وهو يقصد بالطرفين البصر والفحولة، وليس من تعليق على قوله سوى أن نسأله هذه الأسئلة: هل يمكن علاج العمى بالاختصاء؟ وهل يمكن علاج العجز الجنسي بفقء عين واحدة إذا كان عجزاً جزئياً، وبفقء العينين إذا كان العجز كلياً؟!

ويبدو أن أهل عصره قد أثقلوا عليه باستنكارهم المزعج لأن يكون عاشقاً حتى كثر شعره في الرد عليهم وإفهامهم أن القلب محل العشق لا العين، يقول:

ياقوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً

قالوا: بمن لاترى تهذي فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ماكانا

وقال أيضاً:

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها قلبي فأضحى به من حبها أثرُ

أنى ولم ترها تهذي فقلت لهم إن الفؤاد يرى مالا يرى البصرُ

وقال:

إن سليـــمى والله يكلؤها	كالسُّكر تزداده على السُّكَرِ
بُلِّغت عنها شكلاً فأعجبني	والسمع يكفيك غيبة البصر

إن تشابه مضمون هذه الأبيات الذى يقودنا إلى الإحساس بالتكرار راجع إلى تشابه المواقف أو تكرارها، وكأن بشاراً يقول لهم: كُفُّوا ويحكم إننى بشر، والعينان ليستا هما إنسانية الإنسان، وهو حينما يكرر لفظ «الأذن» و«القلب» يريد أن يذكر الناس ويفهمهم أنه مثلهم يسمع ويحس، ففيم إذن استنكارهم؟!

وهذا الاستنكار هو الذى لفت نظر معاصرى بشار إلى سلوكه تجاه النساء فأصبح الرجل مراقباً مداناً من مجتمع لم يكن خيراً منه ولاأقل منه حرصاً على الاستمتاع بالمرأة، بل تجاوزوا ذلك واستمتعوا بالغلمان والرجال، لقد رأى ذلك المجتمع بشاراً بالمجهر حتى بدت تفاصيل حياته واضحة جلية أمامهم، وبدت مغامراته الطبيعية - كما وكيفاً بالنسبة لعصره - مكبرة مئات المرات، حتى كرهوه وتبرموا به، وصروره كما لم يصور بشر.

هجاؤه ومقتله

(إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع، ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر وإلا فليبالغ فى الهجاء ليُخاف فيعطى)[1].

هكذا تكلم بشار بن برد حينما سئل عن ميله للهجاء وإكثاره منه، والواقع أن

(١) الأغانى صـ ١٠٥٣

شخصية بشار كانت بطبيعتها وتكوينها النفسى ومكانها من المجتمع أميل إلى الهجاء منه أى غرض شعرى آخر، فنفسه الرقيقة التى قويلت بغلظة المجتمع وجفائه كان عليها أن تثأر لنفسها بالهجاء أو على الأقل تجعل منه حصنا تحمى به من مجتمع كالذى وجدت فيه، كما أن اختلافه - بمولده فاقد البصر - عن العامة قد حال بينه وبين القيام بعمل يرتزق منه، فلم يكن أمامه من طريق إلا الشعر الذى أخذ له أحد أغراضه وهو المدح، فقد مدح الكثيرين ولم يعطوه شيئاً، فتوصل أخيراً إلى أن الهجاء هو أقصر السبل للشهرة والثراء معاً.

ويبدو أن بشاراً قد احترف الهجاء منذ صباه المبكر (فإذا هجا قوماً جاءوا إلى أبيه يشكونه فيضربه ضرباً شديداً فكانت أمه تقول: كم تضرب هذا الصبى الضرير، أما ترحمه! فيقول: بلى والله إنى لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلىّ، فسمعه بشار فطمع فيه فقال له: ياأبت إن هذا الذى يشكونه منى إليك هو قول الشعر، وإنى إن ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلى، فإن شكونى إليك فقل لهم: أليس الله يقول «ليس على الأعمى حرج» فلما عاودوا شكواه قال لهم برد ماقال بشار، فانصرفوا وهم يقولون: فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار)[1].

وهكذا ذاع صيت بشار من خلال هجائه الذى كان يؤرق ويرعب من يتوعدهم به، ولم يكن بشار يخشى فى هجائه شخصية كبيرة فى الدولة ولاشخصية ذات حسب ونسب

---

(١) الأغانى صـ ١٠٥٤

عريضين. وقد هجا العباس بن محمد أخا الخليفة المنصور، وهجا الخليفة المهدى نفسه ووزيره يعقوب بن داود يقول في هجاء العباس:

ظل اليسار على العباسى ممدود ... وقلبه أبداً فى البخل معقود

إن الكريم ليخفى عنك عسرته ... حتى تراه غنياً وهو مجهود

وللبخيل على أمواله علل ... زرق العيون عليها أوجه سود

إذا تكرهت أن تعطى القليل ولم ... تقدر على سعة لم يظهر الجود

وهكذا كان الهجاء يمثل الخطوة التالية الطبيعية بعد أن يمدح فيخيب أمله ولايعطى، فكان هجاؤه بمثابة رجوع عن المدح الذى يرى أن ممدوحه - حين لم يعطه - لايستحقه، وهكذا هجا العباس ورماه بالبخل بعد أن أثبت له الغنى حتى يظهر بخله واضحاً، ثم صورة الكريم الذى يخفى فقره عن الناس ويعطيهم حتى يظنوه غنياً، وهذه المفارقة تبرز الصورة وتزيد من تأثيرها في نفس السامع حتى يظهر فى الصورة الرجل الغنى الذى لايعطى والفقير الذى يعطى.

وقد مدح بشار الوزير يعقوب بن داود فلم يعطه شيئاً، فلما مازحه بشار علَّه يمنحه، أغلظ له يعقوب القول، فقال يهجوه:

لاييأسن فقير من غنى أبداً ... بعد الذى نال يعقوب بن داود

قد صار من بعد إشراف على تلف ... وبعد غلٍّ على الزندين مشدود

أخاً لمهدى خلق الله كلهم ... يوفى به فوق أعناق الصناديد

لئن حسدت على مانلت من شرف ... لقد عنيت زماناً غير محسود

بنـــى أمـيـــة هبـــو طـــال نومكم	إن الخليـفـــة يعـقـــوب بن داود
ضـاعت خـلافتكم يـاقوم فـالتـمسوا	خليفـ اللـــه بـــين الـزق والعـود

وقد (مدح بشار الخليفة المهدى فلم يعطه شيئاً، فقيل له لم يستجد شعرك، فقال: والله لقد قلت شعراً لو قيل فى الدهر لم يخش صـ على أحد، ولكنا نكذب فى القول فُنكَذب فى الأمل)[1]، وكان قد قال فيه:

إلى مـلك مـن هاشـم فى ـ وة	ومن حمير ى الملك فى العدد الدَّثر[2]
من المشترين الحمـد تندى من النـدى	يـداه ويندى عارضـاه مـن العطـــر
فالزمت حـبلى حبل مـــن لاتُغَبـــه	عفـاة الندى من حيث يدرى ولايدرى
بنى لـك عـبـد الله بيـت خـلافـة	نزلـت بهـا بين الفـراقـد والـنسـر
وعنـدك عـهـد مـن وصـاة محـمـد	فرعت به الأمـلاك من ولد النضـر[3]

فلما لم يعطه الخليفة مالاً ولاكسوة ولاناقة ضاق به ذرعاً وقال يهجوه:

خليـــفـــة يزنـى بعـــمـــاته	يـلعب بـالدبـوق والصـــولجـــان[4]
أبدلنـا اللـــــه بــــه غــــره	ودس مـــوسى فى حـــر الخـيـــزران

ومن خلال أعـداء بشار - ومـاأكثرهـم - وصل شـعره هذا إلى الوزير يعـقوب بن داود

(١) الأغانى صـ ١٠٦٢
(٢) الدثر: الكثير
(٣) فرعت: علوت
(٤) الدبوق: لعبة يلعب بها الصبيان

الذى ناله من لسـان بعار عار كـبير، فـسعى بهـذا الشعر إلى المهـدى (فدخل يعـقوب على المهدي فقال له: ياأمير المؤمنين، إن هذا الأعـمى الملحد الزنديق قد هجاك، فقال: بأى شيء، قال: بما لاينطق به لـساني ولايتوهمـه فكرى، قال له: بحيـاتى إلا أنشدتنى، فـقال: والله لو خيرتنى بين إنشـادى إياه وضرب عنقى لاخترت ضرب عنقى، فـحلف عليه المهدى بالأيمان التى لافسحة فيها أن يخبره، فقـال: أما لفظاً فلا، ولكنى أكتب ذلك، فكتبه ودفعه إليه، فكاد ينشق غيظاً)[1]، ثم قصد المهدى البصرة وقبض على بشار وأمر بضربه بالسوط حتى الموت، فأخذ إلى سـفينة وضرب سبعين سوطاً حـتى مات فألقوا به فى الماء، (فحمله المـاء فأخرجه إلى دجلة فأخذ فأتى به أهله فدفنوه)[2].

وهكذا مات بشـار بن برد ضحـية لمجتـمع شمت بموته وقد تبـاشر الناس وهنأ بعـضـهم بعضاً وحمدوا الله وتصدقوا.

ولم يمش في جنازة بشـار إلا أمـه سوداء سندية عجـماء مـاتفـصح تصـيح: واسيـداه! واسيداه.

وهذه الأمة هى «عبدة» التى قال فيها:

يعـاتبنى فى حب عـبدة مـعـشـر قلوبهـم فـيـهـا مـخـالـفة قـلبى

ويبدو أن قلبـها فيه كـان مخالفـاً قلوبهم، فهى الوحيدة الـتى استطاعت أن ترى وتلمس وتكلم وتصاحب بشاراً الإنسان.

---

(١) الأغانى صـ ١٠٨٩

(٢) الأغانى صـ ١٠٩٤

حماد عجرد

هو واحد من كبار هجّائي عصره، كانت بينه وبين بشار بن برد جولات كثيرة امتدت حتى بعد موت حماد، وهجاء حماد أفحش وأقذع كثيراً من هجاء بشار غير أن الهجاء عند بشار كان أرقى من الناحية الفنية وأكثر صوراً.

وعلى كثرة الهجاء في شعر حماد إلا أننا لانستطيع أن نعرض إلا النذر اليسير وذلك لفحشه وامتلائه بالألفاظ المستنكرة التى يأباها الذوق وتمجها الآذان، حتى بدا بشار أمامه شاعراً مهذباً عفيف اللفظ رقيق الصورة.

ويبدو أن حماداً كان أكثر اقتراباً من صفوة المجتمع العباسى آنئذٍ من بشار فكان بشار يسأله قضاء حاجاته عندهم، وحدث أن أبطأ حماد فى إنجاز حاجة لبشار عند عقبة بن نافع، فغضب بشار وقال يهجوه:

مواعيد حماد سماء مخيلة | تكشف عن رعد ولكن ستبرق
إذا جئته يوماً أحال على غد | كما وعد الكمون ماليس يصدق[1]
وفى نافع عني جفاء وأنني | لأطرق أحياناً وذو اللب يطرق
وللنقرى قوم فلو كنت منهم | دعيت ولكن دونى الباب مغلق[2]
أبا عمر خلفت خلفك حاجتى | وحاجة غيرى بين عينيك تبرق

فغضب حماد من قول بشار وأنشد نافعاً الشعر ومنعه من صلة بشار، وهكذا بدأت

---

(١) الكمون: النبات المعروف، ويضرب المثل بمواعيد شربه فيما لايصدق

(٢) النقرى: الدعوة الخاصة

الحرب مستعرة بينهما، وقد اتفقا على أن ييكون بينهما وسيط ينقل لكل واحد شعر الآخر فيه، ونقل الرجل لبشار قول حماد:

إن تاه بشار عليكم فقد ... أمكنت بشاراً من التيه

وذاك إذ سميته باسمه ... ولم يكن حر يسميه

فصار إنساناً بذكرى له ... مايبتغى من بعد ذكريه

ولم أهج بشاراً ولكنني ... هجوت نفسى بهجائيه

لم آت شيئاً قط فيما مضى ... ولست فيما عشت آتيه

أسوأ لى فى الناس أحدوثة ... من خطأ أخطأته فيه

فأصبح اليوم بسبى له ... أعظم شأناً من مواليه

ومن سلوك حماد فى هجاء بشار يتضح أن حماداً كان ينقصه الكثير من الإنصاف والإلتزام بما يتطلبه شرف التنافس، وذلك لأنه كان يعتمد فى هجائه لبشار على عاهته، ولايبالى فى ذلك بالأزمة النفسية التى تصيبه، حتى يخرج الأمر بذلك عن كونه هجاءاً فنياً إلى مجررد إثارة الضغائن وتفتيت نفس بشار الذى كان يتقبل هجاءه بروح أدبية عالية ولايجد حرجاً فى إبداء إعجابه ببعض أبياته. إلى أن قال حماد:

وأعمى قلطبان ما ... على قاذفه حد[1]

---

(١) القلطبان: القواد

شبيه الوجه بالقرد	إذا ما عمى القرد
ولو ينكه فى صلد	صفا لاتصدع الصلد[1]
دَنىٌّ لم يرح يوماً	إلى مجدٍ ولم يغد
ولم يحضر مع الحضار	فى خير ولم يبد
ولم يُخشَ له ذم	ولم يرج له سعد
هو الكلب إذا ما ما	ت لم يوجد له فقد

وحينما سمع بشار البيت الثانى بكى، (فقيل له: أتبكى من هجاء حماد، قال: والله ماأبكى من هجائه ولكن أبكى لأنه يرانى ولا أراه، فيصفنى ولاأصفه)[2].

من الطبيعى إذن أن يتحول الهجاء بينهما إلى غير ذلك حتى أصبح بشار يتتبع حماداً ويحاول أن يضيق عليه رزقه، وكان الربيع بن يونس وزير المنصور قد اختار حماداً مؤدباً لولده، فكتب إليه بشار يقول:

ياأبا الفضل لاتنم	وقع الذئب فى الغنم
إن حماد عجرد	إن رأى غفلة هجم
إن خلا البيت ساعة	مجمح الميم بالقلم[3]

(١) ينكه: يتنفس

(٢) الأغانى صـ ٥٢٠٧

(٣) مجمح: أفسد، الميم: كناية عن الدبر، القلم: كناية عن القبل

فلما قرأ الربيع هذه الأبيات قال: (صيرنى حماد دريئة الشعراء، أخرجوا عنى حماداً، فأخرج)[1].

بين حماد وبشار تشابه كبير فى عدة نقاط تتعلق بالشخصية والفن والسلوك والعقيدة والمصير. فشخصية كل منهما هى شخصية الفنان الساخر الناقم على مجتمعه المتعرض لمثالب الناس وعيوبهم، حتى صار كل منهما مخشياً مهاباً، يتجنبه الناس أو يقتربون منه على استحياء وحذر.

الفن الذى جمع بينهما هو الشعر، وعلى الرغم من إبداع كل منهما فى كافة أغراضه إلا أن الهجاء كان يمثل الكثرة الكاثرة فى شعره، كما كان أيضاً يمثل شاعريته فى أرقى مراتبها، وذلك لطبيعة الشخصية التى يناسبها الهجاء أكثر من الغزل أو المدح أو الفخر أو غير ذلك من الأغراض، كما تميز الهجاء عند كل منهما بالإفحاش والسلاطة حتى أصبح شعرهم فى ذلك الغرض حبيس كتب التراث، حيث لاتستطيع الدراسات الحديثة روايته إلا فيما ندر، حيث اختلفت الأذواق وتغيرت مدلولات الألفاظ، فصار اللفظ مستهجناً لايمكن أن يرويه أديب فى دراسة أو أستاذ جامعى فى محاضرة، فلم يعد لهذا اللون من الشعر متنفس ومخرج إلى الناس إلا من خلال الكتب القديمة المحققة تحقيقاً حديثاً. ولايمثل هذا الأمر عيباً فى شعرهم - من الناحية الفنية - ولكنها مسألة طبيعية، فالناس يجتنبون اللفظ الخاص الذى تلوكه ألسنة العامة فيصبح بطبيعته لفظاً منبوذاً تتجنبه الألسن وتنصرف عنه الآذان.

---

(١) الأغانى صـ ٥٢٠٧

والسلوك الذى يشتركان فيه هو المجون، فقد كان بشار ماجناً عابثاً، وقد بالغ مجتمعه فى تصوير مجونه وخلاعته، وهو إن لم يكن كذلك فلن يكون إلا أقل من ذلك بقليل، وحماد فاق بشاراً خلاعة ومجوناً، وزاد عليه أنه كان لوطيا يستمتع بالغلمان، وله شعر فى التشبيب بغلام يسمى «أبو بشر» يقول فيه:

أخى كف عن لومى فإنك لاتدرى	بما فعل الحب المبرح فى صدرى
أخى أنت تلقانى وقلبك فارغ	وقلبى مشغول الجوانح بالفكر
أخى إن دائى ليس عندى دواؤه	ولكن دوائي عند قلب أبى بشر
دوائى ودائى عند من لو رأيته	يقلب عينيه لأقصرت عن زجري
فأقسم لو أصبحت فى لوعة الهوى	لأقصرت عن لومى وأطنبت فى عذرى
ولكن بلائى منك أنك ناصح	وأنك لاتدرى بأنك تدرى

كما تروى عن حماد قصص كثيرة تثبت عليه ذلك منها مايرويه أبو الفرج قال:

(حدثنى أبو يعقوب الخزيمى يقول: كنت فى مجلس فيه حماد عجرد ومعنا غلام أمرد، فوضع حماد عينه عليه، وعلى الموضع الذى ينام عليه، فلما كان الليل اختلفت مواضع نومنا فقمت فنمت فى موضع الغلام، ودب حماد إلىّ يظننى الغلام، فلما أحسست به أخذت يده فوضعتها على عينى العوراء لأعلمه أنى أبو يعقوب، فنثر يده ومضى فى شأنه وهو يقول: «وفديناه بذبح عظيم»)[1].

---

(١) الأغانى صـ ٥٢١٧

هذا بالإضافة إلى أن كل منهما كان سكيراً عربيداً. والعقيدة عندهم مضطربة والإحساس الديني يكاد يكون منعدماً، وقد اتهم بشار بالزندقة وجعلت ستاراً لقتله، ولم يكن حماد زنديقاً عادياً وإنما كان إماماً للزنادقة، وله شعر كانوا يتلونه فى صلاتهم، وكل من بشار وحماد كان يعادى واحداً من العلماء الأجلاء فى ذلك العصر ويهجوه، فقد هجا بشار واصل بن عطاء بقوله:

مالى أشايع غزالاً له عنق ... كنقنق الدوّ إن ولى وإن مثلا[1]

عنق الزرافة مابالى وبالكم ... تكفرون رجالاً كفروا رجلاً

(فلما تتابع على واصل منه مايشهد على إلحاده خطب به واصل، وكان الثغ على الراء، فكان يجتنبها فى كلامه، فقال: أما لهذا الأعمى الملحد، أما لهذا المـ المكنى بأبى معاذ من يقتله؟ أما والله لو أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست إليه من يبعج بطنه فى جوف منزله أو فى حلقه)[2].

وهجا حماد الإمام أبا حنيفة النعمان، وقد كانا صديقين ثم نسك أبو حنيفة ودرس الفقه وتعلمه حتى بلغ فيه مابلغ، ويبدو أنه حاول مع حماد بعض المحاولات لإصلاحه ورده عما هو عليه، لكن حماداً أصر على ماهو فيه فرفضه أبو حنيفة وذكره فى مجالسه يحذر الناس منه ومن صحبته، فجعل حماد يلاطفه حتى يكف عن ذكره، وظل أبو حنيفة يذكره بذلك حتى قال فيه حماد هذه الأبيات:

---

(١) غزّالاً: يقصد واصلاً لكثرة جلوسه فى السوق، النفقتق: ذكر النعام، الدو: الفلاة

(٢) الأغانى جـ ٣ صـ ٩٩٢٠

إن كان نسكك لايتـ	ـم بغير شتمي وانتقاصي
أو لم تكن إلا به	ترجو النجاة من القصاص
فاقعد وقم بي كيف شئـ	ـت من الأداني والأقاصي
فلطالما زكيتني	وأنا المقيم على المعاصي
أيام تأخذها وتعـ	ـطي في أباريق الرصاص

بعد أن سمع الإمام أبو حنيفة هذه الأبيات أمسك عن ذكر حماد خوفاً من لسانه الذي لايتورع عن إلصاق أي تهمة مهما عظمت بالرجل الفقيه.

وقد بلغ منهما مبلغاً عظيماً في الزندقة حتى فضلا شعريهما على القرآن، فقد سمع بشار جارية تغني شعره الذي يقول فيه::

إن الخليفة قد أبى	وإذا أبى شيئاً أبيته
ومخضب رخص البنا	ن بكى على ومابكيته
يامنظراً حسناً رأيـ	ـت بوجه جارية فديته
بعثت إلى تسومني	ثوب الشباب وقد طويته

فطرب بشار وقال: هي والله أحسن من سورة الحشر[1].

(١) الأغاني جـ٣ صـ ١٠٥٧

كما نسب لحماد خبر كهذا، فقالوا (أن حماد عجرد كان ينشد شعراً، ورجل بإزائه يقرأ القرآن، وقد اجتمع الناس عليه، فقال حماد: علام اجتمعوا؟ فوالله لما أقول أحسن مما يقول)[1].

وكما كان بشار لايقرب الصلاة وكان أصحابه يضعون التراب حول ثوبه ليعلموا أيقوم أم يبقى فى مكانه فلما يعودون يجدون التراب كما هو فيعلمون أنه لم يقم، كذلك كان حماد لايصلى بل ويستثقل الإطالة فيها على الرغم من أن الذى يصلى غيره، وقد هجا رجلاً يسمى سهم بن عبد الحميد الذى كان يصلى الضحى وهم يتنظرونه حتى يبدأوا الغداء، فلما أطال سهم قال حماد:

الا أيهـــا القـانـــت المتـهـجـد	صـلاتك للرحـمن أم لىّ تسـجـد
أمـا والذى نادى مـن الطور عـبـده	لمن غـيـر مـابـرٌ تقـوم وتقـعـد

(فلما سمعها سهم قطع الصلاة وجاء مبادراً، فقال له: قبحك الله يازنديق، فعلت بى هذا كله لشرهك فى تقديم أكل وتأخيره! هاتوا طعامكم فاطعموا لا أطعمه الله تعالى، فقدمت المائدة)[2].

أما عن المصير المشترك الذى صار إليه كل منهما، فهو القتل بسبب الشعر، وقد رأينا كيف قتل بشار بسبب هجائه، وسنرى كيف قتل حماد بسبب تشبيبه بامرأة تسمى زينب بنت سليمان.

---

(١) الأغانى جـ ١٤ صـ ٥٢٠٥

(٢) الأغانى جـ ١٤ صـ ٥٢١٣

كان محمد بن أبى العباس السفاح يهوى زينب فخطبها فلم يزوجوه، وكان حماد صديقه ونديمه، فقال له محمد: قل فيها شعراً، فقال حماد على لسان محمد:

زينب ماذنبى وماذا الذى ... غضبتمُ منه ولم تغضبوا

والله ماأعرف لى عندكم ... ذنبا ففيم الهجر يازينب

إن كنت قد أغضبتكم ضلة ... فاستعتبونى إننى أعتب

عودوا على جهلى بأحلامكم ... إنى وإن لم أذنب المذنب

وقال أيضاً على لسان محمد بن أبى العباس السفاح:

ألا من لقلب مستهام معذب ... بحب غزال فى الحجال مربب

يراه فلا يستطيع رداً لطرفه ... إليه حذار الكاشح المترقب

ولولا مليك نافذ فيه حكمه ... لأدى وصالاً ذاهباً كل مذهب

فلما بلغ ذلك الشعر مسامع محمد بن سليمان - أخى زينب - نذر دمه وأصر على قتله لكنه لم يستطع لمكانة حماد من محمد بن أبى العباس، فلما مات بن أبى العباس جد ابن سليمان فى طلبه، فخاف حماد ولم يجد من يلوذ به ويستجير بحماه، فاستجار بقبر سليمان بن على - أبى محمد بن سليمان - وراح يمدحه ويمدح سليمان، فقال:

من مقر بالذنب لم يوجب اللـ ... ـه عليه بسىء إقراراً

ليس إلا بفضل حلمك يفتـ ... ـر بلاء ومايمد اغترارا[1]

---

(١) يفتر: ينكشف ويزول

ياابن بنت النبى أحمد لا أجعـ	ـل إلا إليك منك الفرارا
غير أنى جعلت قبر أبى أيو	ب لى من حوادث الدهر جارا
وحرى من استجار بذاك الـ	ـقبر أن يأمن الردى والعثارا
لم أجد لى من العباد مجيرا	فاستجرت التراب والأحجارا
لست أعتاض منكم فى ابتغاء العـ	ـز قحطان كلها ونزارا
فأنا اليوم جار من ليس فى الأر	ض مجير أعز منه جوارا
ياابن بنت النبى ياخير من حطـ	ـت إليه العوازب الأكوارا[1]
إن أكن مذنباً فأنت ابن من كا	ن لمن كان مذنباً غفارا
فاعف عنى فقد قدرت وخير الـ	ـعفو ماقلت كن فكان اقتدارا
لو يطيل الأعمار جار لعز	كان جارى يطول الأعمارا

لكن محمد بن سليمان لم يرض بهذا وقال: والله لأبلن قبر أبى من دمه، فلم يجد حماد بداً من الفرار إلى بغداد حيث يمكنه أن يستجير بجعفر المنصور الذى أجاره فعلاً واشترط لذلك أن يهجو محمداً بن سليمان فقال فيه حماد:

قل لوجه الخصى ذى العار إنى	سوف أهدى لزينب الأشعارا

---

(١) العوازب: الإبل، الأكوار: جمع كور وهو الرحل

قد لعمري فررت من شدة الخو | ف وأنكرت صاحبي نهارا
وظننت القبور تمنع جارا | فاستجرت التراب والأحجارا
كنت عند استجارتي بأبي أيـ | ـوب أبغي ضلالة وخسارا
لم يجرني ولم أجد فيه حظاً | أضرم الله ذلك القبر نارا

وقال أيضاً في هجائه:

ياابن سليمان يامحمد يا | من يشترى المكرمات بالسّمن
إن فخرت هاشم بمكرمة | فخرت بالشحم منك وبالعكن[1]
لؤمك باد لمن يراك إذا | أقبلت في العارضين والذقن[2]
ليتك إذ كنت ضيقاً نكراً | لم تدع من هاشم ولم تكن[3]
جداك جدان لم تعب بهما | لكنما العيب منك في البدن

فلما بلغ محمداً قوله قال: (والله لايفلتني أبداً، وإنما يزداد حتفه بلسانه، ولاوالله لاأعفو عنه ولاأتغافل أبداً). وظل ابن سليمان يطلب حماداً، وحماد ينتقل من مكان إلى مكان يبحث عن مأوى وملاذ حتى أدركه بن سليمان في منطقة تسمى الأهواز، فأرسل مولى له فظفر به فقتله.

---

(١) العكن: البطن المتدلي من السمنة
(٢) العارضان: الخدان
(٣) نكر: خبيث

امرؤ القيس

سأل امرؤ القيس زوجته أم جندب عما يكره النساء منه، فقالت: يكرهن منك أنك ثقيل الصدر، خفيف العجز، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة، وسأل أخرى نفس السؤال فقالت: يكرهن منك أنك إذا عرقت فحت بريح كلب، فقال: أنت صدقتني، إن أهلي أرضعوني بلبن كلبة.

هكذا قدر للأمير الشريف، والشاعر المرهف الحس أن يواجه واقعاً مراً يعز على مثله أن يتحمله، فما حاجة النساء لشاعر فصيح، رقيق العبارة، جزل اللفظ، دقيق التصوير، إذا كان فى الفراش ثقيل الصدر، خفيف العجز، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة، أو إذا كان يعرق فيفوح بريح كلب.

وهكذا أصبح الأمير يشعر بانحطاط نفسى أمام المرأة التى يشتهيها ولايجد سبيلاً للوصول إلى إعجابها، ويستمتع بها لايستطيع أن يمتعها به، فسرعان مالجأ إلى الشعر الذى يستطيع من خلاله أن ينسج الحكايات والمغامرات التى يكون فيها الرجل الذى لايستطيع أن يكونه فى الواقع، فهو فى شعره رجلُ فحل، تشتهيه النسوة، ويرحبن بمقدمه فى أى وقت، غير مباليات بالأهل ووجودهم فى سامرهم، وربما كان فيهم أزواجهن.

يقول فى إحدى قصائده:

سموت إليها بعدما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالاً على حالِ[1]

فقالت: سباك الله إنك فاضحى ... ألست ترى السمار والناس أحوالى

---

(١) حباب الماء: قطراته

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطَّعوا رأسى لديك وأوصالى
حلفت لها بالله حلفة فاجر ... لناموا فما إن من حديث ولاصال[1]
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت ... هصرت بغصن ذى شماريخ ميال[2]
وصرنا إلى الحسنى ورق كلا منا ... ورضت فذلت صعبة أى إذلال
فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلها ... عليه القتام، سيء الظن والبال[3]
يغط غطيط البكر شد خناقه ... ليقتلنى والمرء ليس بقتال[4]
أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال[5]
وليس بذى رمح فيطعننى به ... وليس بذى سيف وليس بنبال
أيقتلنى وقد شغفت فؤادها ... كما شغف المهنوءة الرجل الطالى[6]
وقد علمت سلمى وإن كان بعلها ... بأن الفتى يهذى وليس بفعال

من خلال هذه الأبيات حاول امرؤ القيس أن يصور نفسه عاشقاً استبد به الشوق حتى هانت أمامه كل المخاطر التى تعترض سبيله إلى محبوبته، حتى سما إليها فى خفة ورشاقة كقطرات الماء التى يعلو بعضها بعضاً فى هدوء ويسر، ثم لما وصل إليها ووجدها مضطربة من أثر المفاجأة اخذ يقسم لها أنه لن يذهب حتى لو قتلوه ومثلوا به، فلا فائدة إذن من الاضطرابات أمام عاشق مُصِر على قضاء لحظات الوصل العذبة، ولامانع من أن يحلف لها

---

(١) صال: مصطلى بالنار، يستدفىء
(٢) هصرت: جذبت، الغصن أراد به جسمها، ذى شماريخ: يقصد شعرها
(٣) القتام: الغبار (٤) يغط: يردد صوتاً كصوت المختنق، البكر: الجمل الصعب ترويضه
(٥) المشرفى: السيف، الأغوال: جمع غول (٦) المهنوءة: المطلية بالقطران

كاذباً أن الناس قد نـاموا ولـم يعد هناك من يتحـدث أو يجلس أمام النار طالباً دفء لهيبها، فلما اطمأنت بدأت تبادله الحديث الحلو الهادىء، وقد انقادت له بعد صعوبة، وسهلت بعد تمنع، فانتزع هواها، وخلب فـؤادها، فأحبته وكـرهت زوجها الذى عاد مغبـراً كاسف البال، فلما عرف ماكان من أمرهما، اختنق غـيظاً كجمل فتى شد من خناقه بحبل، يريد قتله ولكن ليس فى وسعـه أن يقتل من لايفارق سيفه، مسنون السهام، محدد الأزجة، صافية كـأنها أنياب غيلان، وهو لايملك رمحاً يطعن ولاسيفـاً يشهر، ولانبالا ترمى، وحتى لو قتله فأزاحه من طريقه لن يسعـد معـها، فـقد ملك شـاعرها شـغاف قلبـها، كـما تستلذ الناقة المطلـية بالقطران، وقد علمت سلمى أن زوجها ثرثار قوال يتحدث كثيراً ولايعمل شيئاً.

وفى معلقـته التى بلغت ثمـانية وسبـعين بيتاً كـان من الطبيعى أن نـرى المرأة تتسلل إلى أبياتـها من خلال الـوصف تارة ومن خلال دورها كـبطلة فى مغـامرة عـاطفيـة تارة أخرى، يقول:

وبيـضـة خـــدر لايـرام خـباؤهــــا	تمتـعت من لهـوٍ بهـا غـير مـعـجل[(١)]
تخطيـت أهوالاً إليـهـا ومـعـشـراً	على حــراصـاً لو يسـرون مـقـتلى
إذا مـا الثريـا فى السـمـاء تعـرضـت	تعـــرض أثناء الوشـاح المفـصل[(٢)]
فـجئت وقـد نضـــت لنوم ثيـابهـا	لدى السـتـر إلا لبسـة المتـفـضل[(٣)]
فـقالت: يمـــين اللــه مـالك حيلـــة	ومـاإن أرى عنك العـمـاية تنجلى[(٤)]

(١) بيضة: أراد بها المرأة لصفائها ورقتها

(٢) الوشاح: خرز ملون، المفصل: الذى فصل بالزبرجد

(٣) نضت: نزعت، المتفضل: الذى يلبس ثوباً احداً

(٤) العماية: الاستهتار

خـــرجت بهـــا تمـشي تجـــر وراءنا ... على أثرينـا ذيل مـــرط مـــرحل[1]

فلمـا أجـزنا سـاحـة الحـــى وانتـحى ... بنا بطن حـقف ذى ركـان عـقنقل[2]

إذا التفتت نحـوى تضــــوع ريحها ... نسيم الصبـا جاءت برريا القرنفل[3]

هصــــرت بفـودَىْ رأسـها فـتمايـلت ... على هضيـم الكشح ريا المخلخل[4]

فى هذه المغـامرة (يرسم فى صـورة متكاملة كـيف اقتحم الأهـوال إليها، وتخطـى القوم برغم يقظة هؤلاء، ومنعـة بيتـها، وتربص أهلهـا به، وإصرارهم على قـتله لو استـطاعوا أن يفعلوه خفية، وماهم بقادرين لحسبه ونباهته، وقـد بلغ بيتها والثريا تتوسط السماء،تلمع فيها بين النجوم لمعـان لؤلؤة تتوسط خـرزاً فى ثوب موشى. وكانت صاحـبته تأخذ أهبـتها لتنام، خلعت ثياب اليوم وارتدت ثوب النوم، فلما فاجأها جـرى بينهما حديث وحوار، أقسمت له أنها استنفدت جهـدها فى دفعه، فلم يبق لها حيلة، وأنه مغرق فى استهـتاره، فلا سبيل له أن يتـعقل، ومـابقى أمامـها إلا أن تطيـعه، فـخـرجت معـه إلى مكان قصى من الحى حـيث لاتراهما العيون، وقد ارتدت ثوباً طويلاً تجر وراءهما ذيله، فيمحو كل أثر تخلفه أقدامهما، وقد تطيبت بمسك ينتشر منهـا قوياً، كما لو كان نسيماً رقيقـاً مر بديار عامرة بزهور القرنفل فإذا داعبها مالت عليه دقيقة الخصر ريانة الساق)[5].

وحتي تكتمل مظاهر الفحولة لم يكن هناك بدُ من تصوير مغامرة يكون فيها امرؤ القيس مرغوباً فيه، مسعياً إليه، تترك لأجله عظائم الأمور، وحبذا لو كانت معشوقته هذه أو عاشقته

---

(١) المرط: ثوب من الحرير أو الصوف يؤتزر بها، مرحل: موشى

(٢) الحقف: من الرمل اى المعوج، ركام: أى بعضه فوق بعض، عقنقل: منعقد متداخل

(٣) تضوع: انتشر وتحرك،، ريا: رائحة (٤) هصر: جذب، فودا الرأس: جانباه، الهضيم: الضامر، ريا: ممتلئة

(٥) امرؤ القيس حياته وشعره للدكتور الطاهرر أحمد مكى ط. دار المعارف صـ١٨٩

كما أراد تصويرها أماً لرضيع، ليتوزع قلبها بين رضيعها وحبيبها، فتقوم المفاضلة بينهما، ويقوم الصراع بين عاطفة الأمومة وعاطفة المرأة المحبة، فهى تخشى إذا تخلفت عن حبيبها أن يسىء بها الظن ويسؤوها إذا جاءته أن تدع وليدها يبكى، وحتى يأخذ العدل مجراه قبل الحكم فى ذلك الصراع كان لابد من تمثيل حضوره عندها برسول منه إليها يدعم موقفه عندها، حتى يكو الاختيار بين حاضرين، لابين حاضر وغائب.

ثم لما انحسم الصراع لصالح الحبيب، جاءته تمشى بحذر يشوبه القلق وكأنها تقطف الخطا من الأرض كأنها السكران يخشى أن يدركه الناس فى الطريق، فلما وصلت إليه لم يجد فى صبره مساحة لحديثها فراحت تكلمه وهو يجردها من ثيابها، وتقول له: لو أن شيئاً آخر طرأ فى هذه الساعة من الليل لما أعرته أى اهتمام، أما أنت فلا أستطيع لك دفعاً وقضيا الليل قتيلين لايعرف لهما الناس مصرعا، تسعده وتدفع عنه الهم، ويمتعها وينأى بها عن الملل، ثم انقطع بينهما عادى الحديث وحل مكانه آخر أخفت صوتاً، وأعذب مضى، ولفتها الستائر، فإذا أخذتها هزة النشوة، أمسكت بذراعيه تدنيه منها، فإذا بهما ذراعان قويان لرجل مقدام على الأهوال. يقول امرؤ القيس:

ومنهن سوفى الخود بللها الندى	تراقب منظوم التمائم مرضعا(١)
يعز عليها ريبتى ويسوؤها	بكاه فتثنى الجيد أن يتضوعا(٢)
بعثت إليها والنجوم طوالع	حذاراً عليها أن تقوم فتسمعا

(١) الخود: المرأة الحيية

(٢) يتضوع: يشتد بكاؤه

فقامت قطوف المشى هائبة السرى	يدافع ركناها كواعب أربعا[1]
يزجنيها مشي النزيف وقد جرى	صباب الكرى فى مخه فتقطعا[2]
تقول وقد جردتها من ثيابها	كما رعت مكحول المدامع أتلعا[3]
أجدك لو شىء أتانا رسوله	سواك ولكن لم نجد لك مدفعا
فبتنا نصد الوحش عنا كأننا	قتيلان لم يعرف لنا الناس مصرعا[4]
تجافى عن المأثور بيني وبينها	وتدنى عليها السابرى المضلعا[5]
إذا أخذتها هزة الروع أمسكت	بمنكب مقدام على الهول أروعا[6]

هذا بعض من شعر امرىء القيس فى المرأة، وديوانه يضم العديد من النساء بمقدار مغامراته معهن، وبتعدد المغامرات وتعدد طبائع النساء، (نرى فاطمة المتدللة المعزوزة، وليلى الناسية الذاكرة، وعنيزة المتمنعة المستجيبة، وأسماء المتحولة المتقلبة، وسلمى الغرة النافرة، وماوية الخبيثة الماكرة، مهر اللعوب المستجيبة، ورقاش البخيلة الباذلة، ونساء كثيرات لايذكر أسماءهن، فيهن الساقطة المحتجبة، والساذجة العاقلة، والخائفة المتكبرة، ومن تقصر حبها على رجل، ومن تهب نفسها للناس جميعا)[7].

ومنهن من لها قوم يغارون عليها، ومن لايمثل زوجها ثقلاً فى البادية من الرقيق أو عامة الناس، يأتيها امرؤ القيس ولايقيم لزوجها وزناً، وهناك المرأة الأم، والشابة الفتية، والصبية

---

(١) قطوف الخطا: مشيها متقارب، ركناها: جنباها

(٢) يزجى: يسوق، النزيف: السكران، صباب الكرى: بقية النعاس

(٣) مكحول المدامع: ولد الظبية، أتلع: طويل العنق

(٤) الوحش: الهم وربما قصد الوحشة

(٥) السابرى: نوع الثياب

(٦) هزة الروع: ارتعادة النشوة

(٧) امرؤ القيس حياته وشعره صـ ١٩٤

المراهقة، والحرة والجارية، حتى بائعة الهوى ليس من حرج فى أن يلج دارها، فديوانه إذن يصلح أن يكون مرجعاً لدراسة الحالة الاجتماعية للمرأة فى العصر الجاهلى، ذلك فضلاً عن دراسة الغزل وطبيعته فى ذلك العصر فهذه من الدراسات الموجودة بالفعل.

يطرح أستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكى سؤالاً عن طبيعة شعر امرىء القيس فى المرأة فيقول: (لم شُغل امرؤ القيس دون غيره من شعراء عصره بالمرأة فوصفها ذكريات وبدناً، وصورها حرة وبغيا، وحدثنا عنها طالباً ومغامراً؟)[7].

ثم يقدم لسؤاله جواباً فيقول:

(الجواب يكمن فى نشأته العائلية، كان أبوه متزوجاً بأكثر من امرأة ولسنا نعرف على التأكيد مكانة أمه من قلب أبيه، لكن واقع الحال ينبىء – إذا أخذنا برواية أنها أخت يزيد بن كبشة – وأنه كان زواجاً قبلياً، تمليه صلة القرابة ودواعيها دون أن ينظر فيه إلى عماد أى زواج ناجح، من توافق فى العواطف والميول، وامرؤ القيس يصمت عن أمه تماماً، لايعرض لها ولامرة واحدة، فهل يسوغ لى هذ الصمت أن أفترض أنه افتقدها طفلاً صغيراً، فلم يبق لها فى ذاكرته أدنى نصيب حين قوى عوده واشتد ساعده؟ بلى ذلك ماأراه، من غير أم أمضى امرؤ القيس طفولته وشب يتيماً ضائعاً، أبوه فى شغل عنه بملاذه وملكه، وقاسٍ معه فى تربيته وحسابه، وفى البيت يفتقد العاطفة الودود، فشب وقلبه صحراء مجدبة يغمرها الخوف والوحدة، وشىء يمكن أن يملأ قلب الرجل الخالى، هو قلب المرأة وفى الوقت نفسه

---

(١)امرؤ القيس حياته وشعره صـ ١٩٤

هى أمضى سلاح لقتل الخوف، واجتثاث الوحدة، والمرأة القادرة هى المرأة الفاتنة، وفتنتها تتمثل فى كمالها خلقة وتصويراً. وهذا هو السبب فى أن امرأ القيس قصر شعره ومشاعره على الجانب الحسى وحده فى جمال حبيباته.

ويمكن أن أضيف إلى ذلك سبباً آخر، هو أنه لم تكن هناك فرصة له - ولالغيره - لكى يلقى الحبيبة دوماً، فى غير لحظات اللهو العاجلة، ليكتشف الجانب الخفى من فضائلها، لأن المجتمع الجاهلى رغم أنه لايعرف الحجاب، ولايمنع الاختلاط، كانت تحكمه تقاليد تجعل من الرجل جليس نده، ومن المرأة سميرة بنت جنسها، فكان ثم فصل بين الجنسين تقليداً متعارفاً، فلا يرى الرجل من جمال المرأة إلا جانبه الخارجى، وهو جمال رغم ماديته يعكس جانباً كبيراً من فضائلها النفسية، لأنه جوهر وتعبير، وتجسيم لروحها قبل أن يكون دماً وأعصاباً ومادة، والحب الحسى، كالعشق العذرى، ينبعث عن عاطفة ويعبر عن شعور)[1].

قبل أن نسجل تحفظنا على هذا الجواب نسجل أولاً تحفظنا على السؤال، فشعر امرىء القيس فى المرأة لم يخل تماما من تصوير نفسية المرأة، وإلا فمن أين عرفنا أن فاطمة متدللة معزوزة، وليلى ناسية ناكرة، وعنيزة متمنعة مستجيبة، وأسماء متحولة متقلبة، وسلمى غرة نافرة، وماوية خبيثة ماكرة، لعوب مستجيبة، ورقاش معترضة باذلة، وكل هذه أسماء لنساء ذكرهن الرجل فى شعره وحكى مغامراته معهن التى من خلالها استطعنا أن نقف على الوصف النفسى لهؤلاء النسوة، لكن الواقع هو قلة ذلك الوصف النفسى بالنسبة لجملة شعره.

---

(١) امرؤ القيس حياته وشعره صـ ١٩٤

أما عن سلوكه الماجن والذى أرجعه أستاذنا إلى نشـأته العائلية وخاصة فقده لأمه، فنحن نرى ذلك ظنا لايرقى إلى الواقع، فلم تثبت المصادر أن امرأ القيس نشـأ يتيماً، ولو كان لهذا الأمر أهمية لما أغفله مؤرخو الأدب القدماء، فـإما أنه لم ينشأ يتيماً لذلك لم يذكر فى سيرته يتمـه، وإما أنه نشأ يتمـياً فعلاً وأغـفل المؤرخون ذلك لعدم أهمـيته فى التأثيـر على سلوكه وشـعـره، فالعـرب فى هذه الـفتـرة من الزمن كانوا يرسلـون أطفالهم الرضع إلى البـوادى حيـث يقـضـون فتـرة طفولـتهم الأولى، عند المراضع فينشـأون على خشونة البـادية فيشـتد عـودهم ويخشوشـن طبعهـم فى رمـال الصحـراء الملتهبـة وتحت شـمسها اليقظة، كما تتاح لهـم فـرصـة تلقى اللغـة العـربية مـن ألسـنة أهـل الباديـة وهـم أفـصـح من أهل الحـضر فينشـأ الطفـل طلـق اللسان فـصيحاً، ثم يـعود إلى أهله بعد تلك الفـترة التى غالبـاً ماتكون نهايـة اللهـو والعبث الصبيانى، فيعهد له أبـوه بعـمل يسـير كرعى الغنم حيث يقضى نهاره فى عمله ويقضـى بعـض ليلـه مع رفاقـه ممـن هم في مثل سنه وغالبـاً يعملون نفس عمله، أو مع أبيـه فى مجـالس الرجـال، وبذلك تكون عـلاقـته بأمـه عـلاقـة محـدودة، فـلا يرثُى لصبى مـاتـت أمه أو فارقت أباه مطلقـة عائدة إلى مضـارب قبيلهـا، كما أن العـرب تعرف اليتيم بموت أبيه قبل أن يبلغ الحلم، لا بموت أمه، أما عـدم ذكر امرىء القيس لأمه فى شعره فلا يسوغ افـتراض أنه افتقدها صـغيراً، وإلا اعتبرنـا الكثرة الكاثرة من شعراء العربيـة أيتاماً لنفس السبب.

لعل هذا السلوك راجع إلى كراهية النساء له وعدم رغبـتهن فيه، فالناس أمام ذلك الأمر ينقسمون قسمين، فمنهم من يجتنب النساء ويعاديهن ويعلل ذلك بعلة يرتضيها، ومنهم من يعتبر المسألـة شخصية ويرى الخلل فى كل امرأة يقابلها فـيظل يبحث عن امرأة بريئة من هذا الخلل، فكان امرؤ القـيس باحثاً عن امـرأة تحبه، لانقـول تسعى إليه ولكن على الأقل تتـقبل

سعيه إليها، كان يبحث عن امرأة لاترى صدره ثقيلاً ولاعجزه خفيفاً ولاإراقته سريعة ولاإفاقته بطيئة، كان يبحث عن امرأة تعانقه فلا تشم له رائحة كلب، كان يبحث عن امرأة تضمد الجرح الذى نكأته أم جندب بوصفها[1] الذى أدمى رجولته وهوى بكبريائه إلى الحضيض.

فى غمرة اللهو والعبث قدر على الشاعر الرقيق أن يتحمل وحده ودون إخوته عبء الأخذ بثأر أبيه الذى قتلته قبيلة أسد، ولقد جاءه خبر مقتل أبيه وهو فى قرية يقال لها «دمون» فى حضرموت، وكان يجالس نديماً له يشربان الخمر ويلعبان النرد، فلما أعلمه الناعى الخبر لم يلتفت إلى قوله واستمر فى اللعب حتى لايفسد على صاحبه المجلس، فلما انتهى من اللعب التفت إلى الناعى وقال: «ضيعنى صغيراً وحملنى دمه كبيراً، لاصحو اليوم ولاسكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر، ثم قال:

خليلى لافى اليوم مصحي لشارب ولافى غدٍ إذ ذاك ماكان يشرب

ثم شرب سبعاً فلما صحا آلى ألا يأكل لحماً ويشرب خمراً، ولايدهن بدهن، ولايصيب امرأة، ولايغسل رأسه من جنابة، حتى يدرك بثأره[2].

ولكن كيف يدرك ثأره وثأره عند قبيلة عظيمة لايستهان بها عدداً وعتاداً، وليس عند فرد يقتله وينتهى الأمر، إلى جانب أن كندة - قبيلة امرىء القيس - كانت تعتمد على أصدقاء فى الجنوب تلاشى سلطانهم، كما أن أعداءهم فى الحيرة كانوا ضعافاً فأصبحوا أقوياء، كما

---

(١) أنظر أول صفحة من هذا الفصل

(٢) الأغانى صـ ٣٢٠٨

أن العصبية الكندية قد اندثرت وتلاشت تقريباً، فكيف يدرك شاعرنا ثأره ولاسبيل إلى حلٍ آخر؟!

ولقد «قدم على امرىء القيس بن حجر بعد مقتل أبيه رجال من قبائل بنى أسد كهول وشبان، فيهم المهاجر بن خداش بن عم عبيد بن الأبرص، وقبيصة بن نعيم، وكان فى بنى أسد مقيماً وكان ذا بصيرة بمواقع الأمور ورداً وإصراراً، يعرف ذلك له من كان محيطاً بأكناف بلده من العرب، فلما علم بمكانهم أمر بإنزالهم وتقدم بإكرامهم والإفضال عليهم، واحتجب عنهم ثلاثاً، فسألوا من حضر من رجال كندة فقال: هو فى شغل بإخراج مافى خزائن حجر من السلاح والعدة، فقالوا: اللهم غفراً، إنما قدمنا فى أمر نتناسى به ذكر ماسلف ونستدرك به مافرط، فليبلغ ذلك عنا، فخرج عليهم فى قباء وخف وعمامه سوداء، وكانت العرب لاتعتم بالسواء إلا فى الترات، فلما نظروا إليه قاموا له، وبدر إليه قبيصة قائلاً: إنك فى المحل والقدر والمعرفة بتصرف الدهر وماتحدثه أيامه وتنتقل به أحواله بحيث لاتحتاج إلى تبصير واعظ ولاتذكرة مجرب، لك من سؤدد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك فى العرب محتمل يحتمل ماحمل عليه من إقالة العثرة، ورجوع عن الهفوة، ولاتتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأى وبصيرة الفهم وكرم الصفح فى الذى كان من الخطب الجليل لأذى عمت رؤيته نزاراً واليمن، ولم تخصص كندة بذلك دوننا للشرف البارع، كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم وإخاء الحمد وطيب الشيم، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرامنا على مثله، ولفديناه منه، ولكن مضى به سبيل لايرجع أولاه على أخراه، ولايلحق أقصاه أدناه، فأحمد الحالات فى ذلك أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال: إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتاً، وأعلاها فى بناء المكرمات صوتاً، فقدناه إليك بنسعة تذهب مع شفرات

حسامك.. أو فداء بما يروح من بنى أسد من نعمها فهى ألوف تجاوز الحسبة فكان ذلك فداءً رجعت به القضب إلى أجفانها لم يردده تسليط الإحن على البرءاء، وإما أن توادعنا حتى تضع الحوامل فنسدل الأزر ونعقد الخمر فوق الرايات، فبكى امرؤ القيس ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد علمت العرب أن لاكفاء لحجر فى دم، وإنى لن أعتاض به جملاً ولاناقة فأكتسب بذلك سبة الأبد وفت العضد، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة فى بطون أمهاتها، ولن أكون سبباً لعطبها وستعرفو طلائع كندة من بعد ذلك، تحمل القلوب حنقاً وفوق الأسنة علقاً»[1].

وانصرف بنو أسد مثقلة عواتقهم بهذا الجواب، وانطلق امرؤ القيس فى الجزيرة باحثاً عن نصير يعينه على الأخذ بثأره واسترداد ملك أبيه الضائع وقد لجأ أول ماجأ إلى قبيلتين من أقوى القبائل العربية هما بكر وتغلب وقد عاونوه وأمدوه بالجند والسلاح، فانطلق طالباً بنى أسد الذين رحلوا حين علموا بمقدمه فأصاب قوماً من بنى كنانة وهو يظن أنهم بنو أسد ووضع السيف فيهم وهو يصيح: يالثارات الملك، يالثارات الهمام، فخرجت إليه عجوز من بنى كنانة، فقالت: أبيت اللعن، لسنا لك بثأر، نحن من كنانة، فدونك ثأرك فاطلبهم، فإن القوم قد ساروا بالأمس، ثم تبع بنى أسد فأدركهم وقاتلهم حتى كثرت الجرحي والقتلى فيهم، ثم حال الليل بينهم، وهربت بنو أسد، فلما جاء الصباح أراد امرؤ القيس أن يعيد الكرة عليهم لكن بكراً وتغلب أبوا أن يتبعوهم وقالوا له: قد أصبت ثأرك، قال: مافعلت ولاأصبت من بنى كاهل ولامن غيرهم من بنى أسد أحداً، قالوا: بلى، ولكنك رجل شئوم،

---

(١) الأغانى صـ ٣٢٢٣

وانصرفوا عنه وتركوه.

ثم خرج امرؤ القيس من فوره إلى اليمن فاستنصر قبيلة تسمى «أزد شنوءة» فأبوا أن ينصروه وقالوا: إخواننا وجيراننا، فنزل بقريب له يدعى مرثد الخير بن ذى جدان الحميرى فاستنصره واستمده على بنى أسد، فأمده بخمسمائه رجل من حمير، ومات مرثد قبل رحيل امرىء القيس بهم، وخلفه رجل يقال له قرمل بن الحميم، فأخذ يسوف امرأ القيس ويطول عليه حتى همّ بالانصراف عنه وقال فيه:

وإذ نحن ندعو مرثد الخير ربنا ... وإذ نحن لاندعى عبيداً لقرمل

فلما سمع ذلك منه أنفذ له الجيش، واستأجر من قبائل العرب رجالاً ثم سار بهم إلى بنى أسد، ومر بموضع فى جنوب مكة يسمى «تبالة» وبه صنم للعرب تعظمه، يسمونه «ذو الخلصة» واستسقم عنده بقداح ثلاث هى الآمر والناهى والمتربص، فأجالها فخرج الناهى، ثم أجالها فخرج الناهى ثم أجالها ثالثة فخرج الناهى للمرة للأخيرة، فاغتاظ امرؤ القيس، وجمع القداح وضرب بها وجه الصنم وقال له: «لو كان أبوك الذى قتل ماعقتنى»[1].

ثم خرج فظفر ببنى أسد، فلم يستقسم عند ذى الخلصة بعدها حتى جاء الإسلام فهدم هذا الصنم.

ولعداوة قديمة بين المنذر ملك الحيرة وبين كندة خشى المنذر أن ينجح امرؤ القيس فى أن يعيد لكندة سطوتها، فوجه إليه الجيوش، وأمده كسرى أنو شروان بجيش من الأساورة

---

(١) الأغانى جـ٩ صـ٣٢١٣

فسرحهم فى طلبه، وتفرقت عن امرىء القيس حمير ومن كان معه فلم تعد له بهم طاقة فنجا فى جماعة من أهله ونزل بالحارث بن شهاب من بنى يربوع بن حنظلة، ومعه الدروع التى كان أجداده يتوارثونها، فأرسل المنذر إلى الحارث يتوعده بالحرب إن لم يسلم له الكنديين اللائذين به، فأسلمهم إليه، فقتل المنذر منهم إثنى عشر فتى من امرائهم، ولم ينس امرؤ القيس لبنى حنظلة موقفهم منه، فاتخذهم مثلاً للغدر والخذلان والخبث والشر، فكان إذا هجا قوماً شبههم ببنى حنظلة وإذا مدح قوماً ارتفع بهم عن ذلك التشبيه.

لجا امرؤ القيس من المنذر ومعه ابنته هند وأدرعه وسلاحه، ونزل على رجل يسمى سعد بن الضباب الإيادى سيد قبيلة إياد فأجاره، لكن المنذر ظل يطلبه فتحول عن سعد الإيادى إلى رجل يسمى المعلي بن تيم من جديلة طيء، وعنده فكر امرؤ القيس أن يستقر زمناً، لكن بقية قوم المعلى ضاقوا به، وطردوا رواحله فخرج من عندهم قاصداً رجلاً يسمى خالد بن أصمع النبهانى، فأغار بنو جديلة عليه وذهبوا بإبله، ففارق امرؤ القيس بنى نبهان ونزل عند رجل خليع فاتك يسمى عامر بن جوين الذى طمع فى أموال امرىء القيس وابنته هند، وقال فيها شعراً، فلما عرف امرؤ القيس ذلك منه، خافه على أهله وماله فتغفله وانتقل إلى رجل يسمى جارية بن مر بن حنبل، من بنى ثعل، فاستجار به، ووقعت الحرب بين عامر بن جوين وبين جارية من أجله، فدافع بنو ثعل عنه وقدر لهم امرؤ القيس موقفهم وشكرهم فى قصيدة هجا فيها خالداً النبهانى الذى توانى عن استرداد رواحله التى أغار عليها بنو جديلة وهو فى جواره.

فلما وقعت الحرب بين طيء من أجله خرج من عندهم ونزل عند رجل من بنى فزارة يسمى عمراً بن جابر بن مازن، وعنده فكر فى الذهاب إلى قيصر ليستنصره على بنى أسد،

ولما وصل إلى قيصر قبله وأكرمه وأنزله منزلة حسنة، فاندس رجل من بنى أسد يسمى «الطماح» وكان امرؤ القيس قد قتل أخاً له، فقال لقيصر: «إن امرأ القيس غوى عاهر وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل فى ذلك أشعاراً يشهرها بها فى العرب فيفضحها ويفضحك، فبعث إليه حينئذ بحلة وشى مسمومة منسوجة بالذهب، وقال له: إنى أرسلت إليك بحلتى التى كنت ألبسها تكرمة لك، فإذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة، واكتب إلى خبرك من منزل إلى منزل، فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها، فأسرع فيه السم وسقط جلده، فلذلك سمى ذا القروح، وقال فى ذلك:

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ... ليلبسنى مما يلبس أبؤسا

فلو أنها نفسى تموت سوية ... ولكنها نفس تساقط أنفسا

فلما صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتضر بها...، ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت فى سطح جبل يقال له العسيب فسأل عنها فأخبر بقصتها فقال:

أجارتنا إن المزار قريب ... وإني مقيم ماأقام عسيبُ

أجارتنا إنا غريبان هاهنا ... وكل غريب للغريب نسيب

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة»[1].

لانستطيع أن نشير إلى قصيدة أو مقطوعة أو بيت ونقول إن هذا هو الذى قتل امرأ

---

(١) الأغانى صـ ٣٢١٩ ومابعدها

القيس، فالرجل كما رأينا قد قتل بسبب وشاية الطماح، وهو لم يقل شعراً فى ابنة قيصر، فكيف يحق لنا أن نقول إن امرأ القيس قد قتله شعره؟!

لاشك أن الطماح كان مصيباً فى النفاذ إلى نقطة إثارة حفيظة قيصر على امرىء القيس حينما ذكره بعهره وشعره الماجن فوضعه أمام فضيحة كبيرة لايمكن أن يتجنب حدوثها إلا بقتل الرجل، ولعل سلوك امرىء القيس الخليع وشعره الصارخ مجونا كانا معروفين لدى قيصر، ولعله كان يتوقع مثل ذلك منه، وإلا لاختار الطماح وشاية أخرى أوقع تأثيراً عند قيصر، لكنه أدرك مكان الجرح فنكأه، لذلك لم يصبر قيصر حتى يتحقق من هذه الوشاية، وهذا دليل على توقعه لحادثة كهذه، لذلك لم يكن عقابه لامرىء القيس عقاباً عادياً وإنما رداً على العار الذى توقع أن يلبسه لقيصر من خلال قصيدة أو عدة قصائد فى وصف مغامرة أو عدة مغامرات مع ابنته، رداً على ذلك ألبسه قيصر حلة مسمومة يتساقط من تحتها جلده.

لذلك نستطيع أن نقول دون مغالاة أن امرأ القيس قد قتله شعره، أى شعره؟ كل شعره.

محتويات الكتاب